كفر أبو طيب

رواية

رواية

كَفْر أبو طَيِّب

أحمد عبد العزيز صالح

كفر أبو طيب

أحمد عبد العزيز صالح

تدقيق لغوي: مصطفى فتحي صقر

الطبعة الأولى 2022 م

رقم الإيداع: 632 / 2022ـــ دار الكتب الوطنية بنغازي

الرقم الدولي الموحد ردمك 5 – 22 – 37 – 9959 – 978 **ISBN**

الوكالة الليبية للترقيم الدولي الموحد للكتاب بنغازي – ليبيا

إصدار مشترك بين كل من:

دار البيان للنشر والتوزيع والإعلان – بنغازي – ليبيا

هاتف 061.2232104 – محمول 091.2090770

دار الدليل الثقافي ـ القاهرة ـ ميدان حلمية الزيتون

هاتف / واتساب ـ 01028573399

aldaleelalthaqafy@gmail.com

١

المقام

لم تكن ليلة شتوية باردة كغيرها من ليالي يناير، بل كانت شديدة البرودة، وكأنَّ السماءَ ستمطر ثلجًا.

اختفى أهلُ البلد خلفَ جدران منازلهم الطينية؛ يحتمونَ بها من بُرودة الجو وتلك الرياح عشوائيَّة الحركة التي تعصفُ بأجسادهم الملتحفة بملابس رقيقة بالية، لا تصدُّ عنهم البرودة، ولا تترك لهم فرصة للنجاة من أنياب البرد القاسية إلا بتقوقع أجسادهم فوقَ أسطح الأفران؛ يأنسونَ بما تبقى بها من حرارة.

الحواري والدهاليزُ خالية تمامًا من المارة، فقط الكلاب الجائعة تعدو من حين إلى حين في الظلام؛ تبحثُ عن بقايا طعام بحاسة الشم، فلا جدوى لأبصارها في ليلةٍ حالكةِ الظلمة كتلك التي غاب عنها القمرُ، وقد قرر القمرُ مثلها الانزواءَ والاحتماءَ من البرد خلف السحب الكثيفة.

مات كثيرون جراء انتشار الكوليرا.. تعاملوا مع المرض القاتل كما لو كان قاطع طريق يتربص بهم بالشوارع المُظلمة، يتجنبون الخروج ليلًا؛ لانتهاء المصالح، ومع شروق الشمس يهرولونَ لأعمالهم؛ ظنًا منهم أن القاتل وغدٌ عربيدٌ، يتجول ليلًا، وينام بالنهار، مُتجنبًا أشعة الشمس.

ليالي الريف هادئة، لا تسمعُ فيها صوتًا، ومن أين يأتي الصوتُ والكل ينتظرُ الليلَ بلهفةٍ حتى يُريحَ جسدَه، وينام بعد انقضاء يوم عمل طويلٍ وشاق؟، لكنها- ليالي الريف- تحملُ هيبة كبيرةً صنعتها مخاوفهم، وقصصهم المُفزعة عن الجنية والعفاريت.

ينتشرونَ بالنهار كالنحل في كل مكان، النساءُ يفترشنَ شاطئ الترعة الكبيرة، يغسلنَ الصحون والملابس، ويملأنَ البلاليص بالماء، والأطفال يلهونَ ويستحمونَ عرايا وهُم سُعداء.

قليلٌ من يملك طينًا مثل العمدة وشيخ البلد والأعيان، وإن حدث فلا يتعدى ذلك بضعة قراريط، أغلبهم يُفلحون في أرض العمدة، ومَن على شاكلته، أو حتى في أرض الباشوات في البلدان المجاورة.

لا أحدَ يجلسُ بلا عمل طوال النهار، ولا ترى في حواري البلد الضئيلة غير الدجاجات والبط، وهي تمرحُ أو تطارد حشرة. حينما يحل المساءُ، ويغلف سماءَ البلد سوادُ الليل، وتتداخل أصواتُ الضفادع مع صرصور الحقل، ويتراقص النخيلُ ويتمايل مهددًا بالسقوط من فرط ارتفاعه- تُغلق الأبواب الخشبية ويبحث مَن خلفها عن مكانٍ دافئ يريحُ فيه جسدَه.

الحواري باردة مظلمة خالية، فيما عدا دوار العمدة، القابع بشموخ وأضلع مُنفرجة تمامًا بقلب القرية، ومصباح فوق قبة بوابة بيته- وحده-

دون أي بيت آخر. يتوسط بيتُ العمدة البلدَ تمامًا، وكأنّ العمدة عبد الرازق أراد أن يرى ويسمعَ ويشعرَ بكل شبر في منطقة نفوذه وسلطته.

نادرًا ما يَلقى أحدًا في تلك الليالي شديدة البرودة، المُنذرة بسقوط المطر والثلج، إذ ينأى بنفسِه عن أيّ تصرف قد يُعرّضُ صحته للخطر. فقط يكتفي بالجلوس بصحن بيتِه فوق أريكته الخشبية الواسعة، لتستطيع احتواءَ جسدِه البدين، وهو يدخن المعسل ويغطى منكبيه بغطاء سميك من الصوف، وتحت قدميه يجلسُ صابر، خفيره الخاص، يُحرك بيده بكرج الشاي فوق منقد الفحم، وينعم بدفء راكية النار، ويُخفي ملامحه عن العمدة خلف بخار البكرج، حتى لا يلمح العمدة ذبول عينيه، ورغبته في النعاس.

الهدوءُ المعتادُ كلَّ مساء بعد انتهاء صلاة العشاء وغلق المُصلى لا ينكسر إلا في أقصى جنوب البلد، عند مفترق الطرق بين الطريق للترعة وسكة محطة القطار، حيث يقبع بيت مسعود، شيخ البلد.

مسعود من أعيان البلد ومن أصحاب النفوذ والمال والجاه، لديه راكية نار وبكرج، مثله مثل العمدة، وعباءة ثقيلة من الصوف لا تختلف عما يرتديها العمدة، وتصافح أطرافها الأرض من خلفه، كلما ترجّل في طريق.

السهرُ ببيت شيخ البلد حظوة كبيرة، لا ينالها غير لفيف رفيع المقام من أعيان البلد وأصحاب التجارة والطين والبهائم. يجلسونَ كلَّ مساء في دائرة حول مسعود، تشبه تلك الدائرة التي يصنعها الفتية والصغارُ حول الشيخ إسماعيل صباحًا، وهم يحملونَ الألواحَ الخشبية ويُسمّعون عليه ما حفظوا من آيات القرآن، وهو يهتز بجسده منصتًا باهتمامٍ وتركيزٍ، ولا يتوقف عن الاهتزاز إلا عندما يضربُ بعصاه فوق جسد المُخطئ.

الفارقُ بين شيخ الكُتاب وشيخ البلد أن عصا الأخير لا يُمسكها بيده أمام مريديه، لكنهم يعلمونَ علم اليقين بوجودها، ويخشونها ويتجنبون وقوعَ عقابه عليهم. إذا غضب على أحدهم بوسعِه مُضايقته والزج به في صراع مع العمدة، وتقليص وقت حصتِه من ري الأرض، أو وقف الحال عند بيع البهائم في السوق.

فواز صانعُ البهجة في تلك الجلسات، يسردُ عليهم حكايات حسناوات شارع عماد الدين، وهم يدخنون النرجيلة، ويستمعونَ له مُنصتين مُبتهجين. زار الشارعَ مرةً واحدةً، وقضى ليلة بصحبة الخواجة بعد بيع محصول القطن، ورغم ذلك فإنه لم يكُف من يومِها عن قص الحكايات عن جميلات عماد الدين، وعن دلعهن وغنجهن، لأكثر من عامين، وكأن حكايات تلك الليلة لن تنتهي أبدًا.

يتمايل رأسُه وهو يشدو بصوته الغليظ المنفر:

يـا عينـك يـا جبـايرك   يـا نـاري مـن وحايـدك

يـــا راجـــل بوريــــه   توهـت فكـري يـا قـاسي

حكاياتُ فواز تجذبُ الآذان، وتفتح الخيالَ لعقول المُستمعين وتتباين الصور في مخيلتهم، وهم يَرسمونها وفق أوصافه لزينة وجوههن، ونضارة أجسادهن، وأصوات ضحكاتهن المُجلجلة، وما يملكنَ من غنج ودلال، وروائح طيبة تغطي على رائحة المعسل والخمرة.

الكل مُنصتٌ بانتباه وشغف، حتى شيخ البلد المُغتر براكية النار التي لا تنطفئ، وبكرج الشاي الذي لا يكف عن تزويدهم بالشاي الثقيل المحلى بسكر أصفر اللون خالٍ من الشوائب، يأتي به من بقالة البندر الكبيرة. صوته ينهمرُ فوقَ رءوسِهم مُسترسلًا، بلا توقف أو لجلجة، وهو يحكي ويحكي، وصوته بين انخفاض وارتفاع، بما تتطلبه حكاياته التي لا تنضب.

لم يقطع تسلسل حكاياته في تلك الليلة سوى صوت مخنوق حزين، صدر عن آخر الجلسة، لم يتبينه شيخ البلد في البداية؛ بسبب الضباب الكثيف الذي صنعه دخانُ المعسل.

صوتُ عمارة الحزين أخرج الجميعَ من نشوة حكايات فواز المُلهمة لذكورتهم، كمَن سكبَ الماء البارد فوق راكية النار.. تذكيرهُم باختفاء

شقيقه فتوح في جوف الترعة الكبيرة منذ أيام، أمرٌ مُحزنٌ ومرعب، وجعل الأفكار المفزعة تجثمُ على عقولهم وصدورهم.

خوفهم من الجنية التي لم تقتل إلا عددًا قليلًا- إن كانت فعلت- أكبرُ بكثير من الكوليرا التي قتلت العشرات منهم أمام أعينهم.

فتوح ليس الأولَ، ولن يكونَ الأخيرَ، مِن آنٍ لآن يختفي أحدُهم ليلًا، وهو يمُر بالترعة الكبيرة في قلب الليل، الحكاياتُ لم تتوقف يومًا واحدًا عن الجنية التي تخطفُ الرجال، وتختفي بهم في قصرها الكائن في عمق الترعة.

كثيرًا ما ارتفع صوتُ الفزع بداخلهم مُطالبًا ببناء مسجد جديد بعيدًا عن الترعة بخلاف المُصلى الصغير المبني على ضفة الترعة الشرقية، فلا حل للبُعد عن الجنية والنجاة من شرها إلا ببناء مسجد آخر في مكانٍ جديدٍ.

المُصلى هو السبب في ذهاب البعض هناك، والوقوع لقمة سائغة بفم الجنية المتربصة بهم طوال الليالي الخالية من ضوء القمر.

الجدية ترتسمُ على ملامح شيخ البلد، وهو يقاوم السطل برأسه بسبب الحشيش، ويؤكد لعمارة أنه سيرسلُ في الصباح بعض خفره للسؤال عن ظهور جثة فتوح.

الرجلُ فظ الحديث، قاسي المشاعر، بَخلَ عليه بطمأنته، وجَزم أن فتوح لا بد أنه مات، وليس بيدهم شيء سوى البحث عن جثته. كثيرًا ما يجرفُ التيارُ جثثَ ضحايا الجنية بعيدًا، بعد أن تنتهي منهم وتلفظهم.

أيامٌ ثقيلة مُحملة بالضيق واليأس مر بها عمارة، وهو ينتظر ظهور جثة أخيه، لم تشفع جلسته المحببة بجوار الساقية في صد الحزن عن قلبه، فقط يجلسُ مسندًا ظهره إلى جذع شجرة التوت العملاقة التي غرسها بيده، منذ سنوات، ويتابع ببصره دوران الثور مُغمض العينين، وصوت انسياب الماء من جوف الساقية للحوض، أو وضع البرسيم لثوره الثاني الضخم، ثور الخصوبة وجلب صغار العجول.

كثيرًا ما كانت مثل هذه الجلسة تطيبُ قلبَه، وتبهجُ فؤاده، وهو ينعمُ برائحة الزرع، ويُداعب النسيمُ الرطبُ حَواسه، لكن مَن ذا الذي ينعم بجمال المنظر أو يشعر برقة النسيم، وقلبه مُمزقٌ على غائب في حُكم القتيل؟.

"صُبح" زوجته البشوش، مليحة الملامح، تأتي إليه بطبق المش والخبز، وحبات الطماطم، وتجلس بجواره وهي تربتُ على كتفِه بعطفٍ وحنانٍ، لا تعرفُ بأي كلمات تواسيه، وهي تعلمُ علمَ اليقين ما يشعرُ به قلبُه من ألمٍ ولوعةٍ لفقد أخيه.

"فتوح" لم يدخل دنيا بعد، وكان دائمَ العون والمُساعدة لأخيه، قوي البنيان، مُقدِمًا على الحياة، لا يكف عن المرح ومُداعبة الجميع.

ترك لهما والدهما قيراطي أرض مِلك، يزرعانهما بجوار عشرة قراريط يستأجرانها من أرض العمدة، الأعباءُ أصبحت فوق عاتق عمارة وحده، منذ اختفاء شقيقه، الفلاحة والزراعة في أرضه وأرض العمدة بجانب متابعة ورعاية أعمال الساقية أنهكتا ظهرَه، وأجهدتا جسدَه النحيل.

أولاده ما زالوا أطفالًا، لا يمكنه الاعتماد عليهم، وإسناد بعض العمل إليهم، لكن كل ذلك يهون بجانب ما يعتصر قلبَه من لوعةٍ لفقد فتوح.

كلما صوّبَ بصره للساقية تذكّر وجهه، وخُيل إليه أنه يسمع صوته، كان مَرحًا يُحب الاستحمامَ بداخل الساقية، ويملكُ من الجرأة ما يجعله يقفُ بقدميه فوق الساري العالي، ويقفزُ لداخل بئرها.

الساقية شهدت على الكثير والكثير من حياتِه، بجوارها رأى -عمارة- صُبح لأول مرة، وهي تحملُ صرة الطعام لوالدها وتمر من أمامه، جميلة طويلة بجسد ممشوق، ذات نظرةٍ جريئةٍ واثقة، وعينين نجلاوين أضافتا لسُمرة وجهها جَمالًا وبهاءً.

العشقُ يقعُ في القلوب، كما تسقط حبة التوت المستوية على رأس الجالس تحتها دونَ سابق إنذار.

لم يتردد كثيرًا، ولم يَحتج للتفكير غير ليلة واحدة ليطلبَ يدَها بعدها من أبيها؛ لتشاركه الجلوس تحت شجرة التوت، والتنعم بنسيم الساقية الذي لا يُضاهيه شيء على الإطلاق.

يحيـا أبوهـا يـا جـدعان	جـاب عزالهـا عـلى الـتمام
يحيـا أبوهـا ورمـش عينيـه	إلـلي مـا حـد يمشي عليـه
يحيـــا أبوهــــا يحيـــا	عوج الطربوش على ناحية

انطلقت الزفة والزغاريدُ، وارتدى عمارة جلبابًا فضيًا جديدًا، ولاسة مُزركشة، وحمله فتوح فوقَ كَتفيه، وخلفهما الجِمالُ تحملُ الشوار وأواني النحاس، وجالت مسيرتهم كل شارع بالبلد مُعلنة عن زواج عمارة من صُبح، وانتشرت رائحة البطاطس المطبوخة بدارهم.

كان يريدُ لفتوح قصة مثل قصته، وزوجة مثل زوجته، حتى وإن كان غيره لا يُشبهه، ولا يُحب من الساقية غير القفز بداخلها مُثبتًا جرأته ومهارته، زوجة تداعبُ دجاجها وبطها كأنهما أطفالها الصغار، وتعجن وتخبز بحرفيةٍ وإتقانٍ.

كلما فقدَ البلدُ أحد أبنائِه قلّ عددُ المُصلين في صلاة العشاء، الخوفُ يتمكنُ منهم بسهولةٍ بالغةٍ، ينقض عليهم بخفة وسطوة أكبر من الجنية،

ويتمكنُ منهم كلهم دفعة واحدةً، بعكس الجنية التي تنتظر فريستها وحيدًا بلا رفيقٍ.

الشيخ درويش، إمام المُصلى، جلسَ مع العمدة، مُعلنًا عن ضيقه وغضبه لقلة المُصلين، حتى إنه أمس لم يجد من يَؤمُّه غير رجلين فقط! العمدة الذي لا يُصلي غير صلاة الجمعة نفخ صدره، وزفر بحُرقة، وأعرب عن بالغ أسفِه لما آل إليه حال رجال البلد من خنوع وقلة دين، وصاح بسخط:

- رجال من ورق.

كعادة كل جنازات البلد، خرج أغلبُ الرجال والنساء يشيعون جنازة فتوح بحُزن واضح ومُعلن، وكما تقولُ الأمثال: من مات صبي.. مات نبي.. حزنت كلُّ القلوب عليه.

طفت جُثته على بُعد قريتين بعد أن يئسَ الجميعُ من العثور عليها، وظن كثيرونَ أنها لا بد قد علقت بقاع الترعة في معدن الساقية القديمة الغارقة، أو انحشرت بين صخور المصاطب القديمة، أو انغرست في الطين، أو لعل الجنيه أكلتها هذه المرة، ولم تلفظها كَمَن سبقوه.

بكى عمارة بحُرقة وهو يُواري جسد شقيقه التراب، بجوار ما تبقى من جثمان أبيهما في قبر العائلة، وهو يزيح بكفه عظام والده، ويُعيد هندمته ورصه، ويُحدثه بصوته المُفعم بالبكاء:

- فتوح جَالك يا حاج.. يآنس وحدتك.

كان يستعد لِحَمله فوق كتفِه يوم زفافه، لكن القدر جعله يحمله بكفنِه بين ذراعيه ويُدخله قبره، الشيخ درويش الضرير يأتي من الخلف، يقودُه غلامٌ بملابس مُتسخة بالية ويتركه عند باب القبر، الغلامُ يحظى دون رفاقه بالاقتراب، ورؤية القبر من الداخل، وكيف يُوضع الجثمان.

يُغلقون البابَ الحديدي، ويرفع الشيخُ يديه لأعلى، ويبدأ في الدعاء السريع المُتلاحق، وخلفه جموعُ الحاضرينَ تجيبه بسرعته نفسِها.. آمين.

لم يكن سهلًا على روضة الساقية، ونغمات طيورها ونسيمها العليل أن تخفف حُزن عمارة، لكنه لم يكن مستحيلًا، احتاج لوقتٍ طويلٍ حتى ألفت روحُه ما حدث، وتغلب على حزنه وفجيعته، وعاد من جديد يتابعُ حركة الثور الهادئة الرتيبة، ويستمتع بصوت خرير الماء من عيون الساقية وقللها، أو يثب بخفة عندما يأتيه أحدهم يطلب خصوبة ثوره المربوط بجواره، مُتحفزًا من أجل ذلك.

لكنه لم يتوقف أبدًا عن إلقاء نظرات الحنق والغضب نحو الترعة، لولا جنيتها المُتوحشة ما فقد شقيقه، وذاق مُر فراقه.

صُبح تبالغ في عطفها عليه وتدليله، حتى إنها أصبحت تشاركه جلسته أغلب الوقت، وتعرض عليه دومًا مُساعدته عوضًا عن غياب فتوح، في كل ليلة تفرد شعرها بعد أن تهذبه بقطرات الجاز، وتفرك له

صدره، وهي تقبله وتضم رأسه لصدرها، كما أحب دائمًا، لكنه لا يفعل شيئًا سوى البكاء، وألم الفراق يعتصرُ قلبه.

في مثل مجلسهما هذا تحت ظلال شجرة التوت، كثيرًا ما جلسا معًا وهو يخبرها بمدى عشقه لها وافتتانه بها.

للساقية ذِكرى لا تبرح عقليهما وقلبيهما مهما حدث، سيدة تأتي لهما تجر خلفها جاموستها، تطلب خصوبة وفحولة ثورهما، تنفذ صُبح المهمة بدلًا من زوجها، وتجلب الثور بعد أن أحكمت ربطة الجاموسة بجذع شجرة التوت.

بيدها الصغيرة تُمسك ذكر الثور، وتوجهه لمكانه، وهي تُصدر صوتًا خاصًا من فمِها، تتلاقى نظراتها بنظرات عمارة، وتُخرجه من شروده، وينتقل بصره بين ابتسامتها المفعمة بالدلال، ويدها القابضة على ذكر الثور، وكم من شهوة غَلبت حزنًا، وأصلحت انكسار الروح.

لم ينتظر عمارة الغروب، وعاد معها لدارهما، وقبل أن تتزينَ له وتسرح شعرها التحم الجسدان، وفعلت معه ما فعلته مع الثور، وهي تضمُّه إليها بكل قوة، وتعيد لروحِه النشوة والرغبة في الحياة.

العمدة رغم كل شيء لا يُريد أن ينتشر الفزع في أهل بلدته، مقتل فتوح لم يمُر بسلام، كَمَن سبقه من ضحايا جنية الترعة الكبيرة، الشاب عُرف عنه قوة البنيان، والجرأة والخفة. أن يقع مثله فريسة سهلة للجنية

لهُو أمرٌ مفزعٌ جعل الحكايات تكثر وتنتشر وتتباين، إذ إنها فعلت ذلك بأقواهم وأكثرهم جرأة.. فماذا تستطيعُ فِعله بالضعفاء منهم؟

حتى أحجبة الشيخ درويش لم توهبهم الراحة والسكينة، الرجلُ حاذقٌ في فك المربوط وعلاج الصرع والتشنج، بيضة مسلوقة عليها طلاسم بخط يده كفيلة بفك المربوط، وإعطائه فحولة وخصوبة تشبهان فحولة ثور عمارة المربوط بجوار شجرة التوت، أما أن يملكَ حجابُه قوة تغلب قوة الجنية، فهذا أمرٌ مشكوكٌ في نجاحِه.

كان يتوجب على العمدة سرعة التصرف وإعادة السكينة لتلك القلوب المرتعبة، خصوصًا ما وقع عليهم من فقد للأحباب بسبب الكوليرا، فلم يغادر الحزنُ قلوبهم بعد.

شيخُ البلد لا يعاني مثله، ولا يهتم بأمر أهل البلد وأمر مخاوفهم، فقط لا يعنيه غير متابعة ورعاية أرضه ونخلِه وبهائمه، وجعل الفلاحين يعملونَ بكلِّ كد وجهد، حتى تجلب له الخير والمال الوفير من بيع المحصول، الرجلُ نبيهٌ بطبعِه ودائمًا يجد حلًا للمشكلات دون مجهود منه أو خسارة تنقص من ثروته شيئًا.

قِطعة صغيرة من الحشيش فوق حجر المعسل، وكوب من الشاي الثقيل وجلسة وحيدًا منفردًا، جعلته يجد الحل، لا بد من مُصلى جديد بدلًا من المُصلى القديم المبني على ضفة الترعة.

المُصلى قديم قِدم نشأة البلد، عندما حَط أبو طيب قدمَه بأرضها بصُحبة أسرته، بنى المُصلى بالتزامن مع بناء بيته، كان رجلًا ورعًا يخاف الله ويبتغى رضاه.. هو من أنشأ البلد من سنوات طويلة، واجتذب البلد كلّ مَن هُم مثله مِمّن لا يُريدونَ العيش بالقرى المجاورة التي يحكم الباشوات قبضتهم عليها.

أرض البلد لم تكن مطمعًا لأي من هؤلاء الباشوات في أي يوم، أرضها منخفضة عن أراضي كل القرى المحيطة، كلما جاء الفيضانُ غرقت أرضها ومات زرعُها، الأفدنة التي تنجو من الفيضان كانت تجذبُ الباشوات أصحاب الأفدنة الكثيرة.

سَئِمَ العمل باليومية في أراضيهم المترامية، وقرر وحده وبمُساعدة أولاده العيش في الأرض المنخفضة الغارقة في ماء الفيضان المنتشر بها البرك والمستنقعات ورائحة الريم.

أصبحت الأرض تسمّى باسمِه، حتى اعتادَ الجميع على اسمها.. كفر أبو طيب، ورث أبناؤه وأحفاده طيبَ سمعته، وحظوا جميعًا بتبجيل أهل البلد والمقام الرفيع.لا يملك كبيرُهم الآن، شفيق أبو طيب، الكثير من الأفدنة مثل العمدة وشيخ البلد، لكنه ما زال يحظى بالمكانة التي تجعله من أعيان البلد. الرجلُ دمث الخلق، حُلو المجلس، بشوشُ بشكل دائم، لا تغيب الابتسامة عن وجهه.

لم يجد شيخ البلد معاناة كبيرة ليستميلَ قلبَ الرجل، وهو يُخبره بحاجة البلد لمسجد كبير، مثلهم مثل باقي القرى المحيطة بهم.

بدا مسعود في جلستِه وحديثه كشيخ ورع، ورسول خير وسلام، وأن أمر الصلاة والعبادة أكثر ما يشغل باله.

الطيبون تجذبهم أحاديثُ الخير وخدمة الناس، كل جَمّالي البلد اشتركوا في نقل الطوب من شونة عباس إلى أرض شفيق التي وهبها عن طيب خاطر بمنتصف أرضه لبناء المسجد الجديد، ومَن غيره يفعلها وهو حفيد أبو طيب؟.

أقنعه شيخُ البلد، وشكره العمدة، وهلل باسمِه كلُّ أهل البلد، حفيد أبو طيب لا يأتى من ورائه إلا كلُّ طيب.

تدافع الجميعُ للعمل والمشاركة حتى يتم البناء، ويُصبح لهم مسجدٌ كبيرٌ مثل باقى جيرانهم.

حتى عمارة، ترك عمله لزوجته النشيطة، وذهب أكثر من مرة للمُساعدة وهو يهتفُ بالعاملين أن المسجد على روح شقيقه فتوح، المرحوم بإذن الرحمن.

شيخُ البلد انتشى بنجاح حَله، وكافأ نفسَه بأن ارتدى جلبابه الواسع وتعطر، وأحكم طربوشه فوق رأسِه، وذهب كما يفعل كلما باع المحصولَ

لحضور حفل الست أم كلثوم.. يقطعُ مسافة ليست بالقصيرة على ظهر بغله القوي حتى يصل لمحطة القطار في البندر، ويذهب للمحروسة وفي طيات ملابسه محفظته الضخمة المصنوعة من جلد الماعز، المنتفخة بالنقود.

الكلُّ يعرفُ أن شيخَ البلد رغم قسوتِه وحِدّته، فإنه صاحبُ مزاج، كلما فعلها وحضر حفل الست، عاد وجلس ليلًا مع رفاقه وبعد السَطل يُدندن لهم ما شَدَت به، رغم بشاعة صوته.

يحسدونه على رؤيتها وسماع صوتها، لكن دونَ أن تفارقَ الابتسامة وجوههم، كما يحسدونه أنه يحظى بداره بأربع زوجات من جميلات البلد، وحده تزوج أربعًا في الوقت ذاته، حتى العمدة لم يفعلها، واكتفى بزوجتين فقط.

هيبة شيخ البلد لا يُقلل منها شيء، الكل يخافه ويتجنب غضبه، لم يره أحدٌ وهو يقتل حميدة ، لكنهم مُوقنون أنه فعلها بعدما ثار عليه ورفض ترك أرضه وبيعها له، لكن كلهم رَأوه وهو يتزوج من أرملته، وتصبح ثالث زوجاته، ويأخذ أيتامها لداره، يعيشونَ في رغد وسط أبنائه.

شيخ البلد يُشبه باشوات البلدان حولهم، الفارق أن الباشوات يرتدونَ البذلة، وهو يرتدي الجلباب والعباءة.

عندما يأتي الدور على حوض أرضه، يقوم عمارة بريها وتوجيه ماء الساقية نحوها أول شيء، يرويها بمُجرد أن يصلَ الماء للترعة الصغيرة، ثم يتفرغ لباقي أراضي الفلاحين، أرض شيخ البلد قبل أرض الفلاحين وقبل أرض العمدة ذاته.

الشيخ شفيق يجلسُ بجلبابه الأبيض القصير مثل لون لحيته الوقورة أمام المسجد الجديد، يتابعُ بحماس وسعادة ارتفاع جدرانه، حتى إنه دائمًا ما يشاركُ في فرد الطين بيديه فوق الجدران، وهبَ البلد أرضًا واسعة تضمن بناء مسجد كبير، بخلاف المُصلى الذي كان يستدعى أن يقف أكثر من نصف المُصلين بخارجه وقت صلاة الجمعة.

كان أول من يُؤذن بداخل صحن المسجد، ويؤدي الصلاة بعد ارتفاع جُدرانه الأربعة، رفع الأذان بصوت قوي رخيم، ووقف يُصلي وركع وسجد وقام وانتصب، ثم ركع وسجد وسكن جسده. ظلّ ساجدًا لمدة طويلة، جعلت شحتة البنا ينزل من فوق السقالة ليرى ماذا حلّ بالرجل؟.

الكل يُهرولُ نحو المسجد الجديد وسط صراخ النساء العالي المزلزل، حتى إن صوت صراخهن أفزع العمدة وأيقظه من قيلولته، وخرج يهتز لحم جسده البدين ليرى ماذا حدث؟.

مات الشيخ الكريم، أكد عبد الحليم المزين ذلك، بعد أن وضع أذنه على صدر الرجل، سلّم الرجلُ روحَه لخالقها، وهو ساجدٌ بصحن المسجد، قبل أن تتراص جذوع النخل، ويصبح له سقف.

الهَمهماتُ ترتفع مُوحدة بالله، والهتافات تتداخلُ بانفعال وهيبة، مَا مِن مثلها هيبة، الآراءُ تتباين، والرجلُ مُمدد مغطى الوجه بعباءته حتى حُسم الأمر أن يُدفن الرجلُ بمسجدِه.

ليس أقلّ من ذلك تقديرًا وتبجيلًا للرجل الطيب الكريم، واهب أرض المسجد، إنها إرادة الله، أرادَ أن يقبضَ روحه وهو ساجدٌ فوق سطح الأرض التي وهبها لأجل الله.

الصفوفُ متراصة خلف جثمان الشيخ لتصبح صلاة الجنازة هي أول صلاة جماعة بالمسجد الجديد، بين يمين الصحن وساحة الصلاة والميضأة توارى جسد الشيخ تحت التراب، وبُني فوقه مقام.. مقام أبو طيب.

2

الساقية

انتشرت قصة الشيخ شفيق الميت وهو ساجدٌ كالنار في الهشيم في كل البلدان، تلك الحكايات تُلهب المشاعر، ويتغنى بها كل محروم مكلوم.

البعضُ يتحدثُ عن أن للشيخ كرامات، والبعض يؤكد أن الرجل كان مُوكّلًا له مهمة من الله، وعندما أتمّها صعدت روحُه للسماء.. بلا شك هو وليٌّ من الأولياء الصالحين، هكذا قالوا، وهكذا صدّقوا، أصبح المقامُ يجذب الباحثينَ عن العون وهدوء البال.

المسجدُ يقصده كلُّ أهل البلد كل صلاة، ولم يعد للمُصلى القديم قيمة سوى لِلهو الصغار، والسباحة أمامه في ماء الترعة، وفي صلاة الجمعة يأتي للمسجد المصلون من كل مكان، وكل قرية، وحتى من البندر. البسطاءُ في كل مكان يبحثونَ بلا هوادة عن جبر الخواطر في كل بقاع الأرض، كما تطوف الطيور في السماء؛ بحثًا عن حبات القمح في الأرض.

" حُسنَى"، زوجة رفاعي البلطجي، تسعى للمقام، وتقفُ بجواره تترجى سيدي شفيق أبو طيب، أن يتشفع لها عند خالقه كي يُنعم عليها بالولد. مر على زواجها برفاعي ثلاث سنوات، ولم ينتفخ بطنها بالخَلَف، الكارهون لرفاعي- وما أكثرهم- يتهامسون فيما بينهم أن هذا عقابُ الله

للبلطجي الآثم القاتل. الله لا يُريد أن يهبه البنين، لكي لا يصبحوا ذات يوم بلطجية مجرمين، مثل أبيهم، لكنها لم تيأس، ولم تتوقف عن طلب الشفاعة، وهي تتلمسُ بيدها المقام وتهمسُ له برجاء:

- ولد واحد يا شيخ، ولو دفعت بصري ثمنًا لولادته.

سمعت كثيرًا أن بعضَ مَن زار المقام قضيت حاجته، وأنعمَ الله عليه بما يُريد، مر عليها فيضانان، ولم تتوقف جُمعة واحدة عن زيارة المقام وتكرار السؤال والرجاء، حتى إنها أصبحت تصنع الفول النابت، وتوزعه على المُتسولين والمجاذيب بعد كل صلاة جمعة، رغم ضيق زوجها مما تفعل، لكنه على أي حال لا يُبالي ولا يهتم، فقط لا يُشغله غير عمله، وما يُقدم من خدمات لشيخ البلد ومعارفه.

عمله رغم بشاعته وشره أراحَ حُسنى من العناء كأغلبِ نساء البلد اللائي يحملن ما تجودُ به الأرض من زرع وثمار فوق ظهور الحمير والبغال قبل كل شروق، ويذهبن للبندر للبيع، والعودة بالقليل من النقود يضعنه بين طيات جلاليبهن، بكل حرص وحذر.

المعلم توفيق شديد، كبيرُ الشدايدة، طلب من شيخ البلد مساعدة رفاعي لقتل خصمه اللدود ومُفسد تجارته المعلم حسونة، يتنافسان منذ زمن طويل حول جمع وبيع القطن من كل قرى الناحية.

مئة جنيه دفعة واحدة أخذها شيخُ البلد، واقتصَّ منها عشرة جنيهات، وضعها بيد رفاعي جعلته لا يفوت ثلاثَ ليالٍ متتاليةٍ، وكان الصراخُ والعويلُ ينطلقان من بيت المعلم حسونة، بعد أن وجدوا جثته بجوار شريط القطار مقطوعة الرأس.

شيخُ البلد هو الوحيد الذي يستطيعُ التعاملَ مع رفاعي، وجمح شره، كَمَن يُربي كلبًا سعرانًا ببيته، يأمن شره بقطعة لحم.. هو ذِراعُه اليمنى، وحاميه الأول، وأحدُ مصادر قوته، وصناعة هيبته، ويخاف الجميع منه بمَن فيهم العمدة نفسُه، وإن لم يُفصح عن ذلك يومًا، لكنه رغم ذلك، يجلسُ مهمومًا مضطربًا كلَّ ليلة، بعد أن فعلها أبناءُ الفلاحين من الضباط، وعزلوا الملك، ولم يعد يعرف أحد أين اختفى باشوات الناحية؟

أصدر مُحمد نجيب قراره بالإصلاح الزراعي، وسُحبت الأفدنة من أيدي الباشوات، شيخُ البلد ليس مثلهم يملك مئات الأفدنة، لكنه لا يشعر بالراحة على الإطلاق، ولا يكف مأمور المركز عن استدعائه بصحبة العمدة.

توقفت جلساتُ المساء، ولم يعد يشغله السفر للمحروسة لحضور حفل الست الشهري، الخوفُ جاثمٌ على صدره ليُفسد عليه حياته، حتى حجر المعسل المختلط بالحشيش لم يهبه الهدوءَ والسكينة.

الأحداثُ تتوالى بسرعةٍ كبيرةٍ، والأخبارُ تأتي من محطة القطار تزيد مخاوفه وتهدد سطوته وهيلمانه، ولا يخافُ أن يقولها علانية على مسمع من العمدة والخفر:

- ليتَ المَلك بقى.

الفلاحونَ متكاسلونَ عن عملهم ومُتجهمون؛ بعد أن علموا أن أقرانهم في البلاد المجاورة تلقوا عقود ملكية الأرض من الضباط، وحدهم لا يشعر بهم أحدٌ، ولم تطأ قدم ضابط واحد أرض كفر أبو طيب.

بلدتهم لا تجذبُ غير المجاذيب والمتسولين كل جمعة، من كل أسبوع.

أحدُ معاوني شيخ البلد يُهرول ناحيته، ويخبره بأن الماء وصل إلى الترعة الصغيرة، ولم يبدأ عمارة بري أرضه ككل مرة، وبدأ بأرض غيره.

اشتعل الغضبُ برأسه، وتحركَ بانفعالٍ نحو الساقية، والشرُّ كأنه حُمرة تكسو عينيه، لم يسأل عمارة عن السبب فور وقوفه أمامه، فقط صاح به بغضب وقسوة:

- يا ابن الـ.......؟

لطمه بكل قوته على وجهه، لطمة جعلت جسده يترنح من شدة قوتها، ويسقط أمام جسد الثور معصوب العينين، ثم يقع بين جسده

العملاق وحافة بئر الساقية، ليقفز ويزوم ويرفس، ويقع بقدميه وكل وزنه فوق بطنه وصدره، مرة ومرة، وبعدهما سال الدمُ من فم عمارة وأنفه.

شيخُ البلد يقفُ مشدوهًا مصدومًا، جاحظ العينين، كمَن وقع فوق رأسه نيزكٌ من السماء، وهو يسمع حشرجة راعي الساقية، ويرى تشنج جسده، وروحه تخرجُ من حلقومِه.

تجمع الفلاحونَ ووقفوا مُرتعبين أمام جثة عمارة، ولم يجرؤ أحدٌ أن يجرها بعيدًا عن حوافر الثور، إلا بعد أن تحرك شيخُ البلد وعاد لداره.

حينها سحبوه وهُم يبكونَ الرجل الطيب الذي أجَّل ري أرض شيخ البلد، لا لشيء سوى أنه أراد أن يسأله قبلها: إن كان قد انتهى من جمع الذرة أم لا؟؟

صُبح تولول وتلطم وجهها، وتغمر رأسها بالتراب، مُنتحبة أمام دوار العمدة، وهي تطالبه بالقصاص من شيخ البلد.

الكلُّ عابثٌ متجهمٌ في جنازة عمارة، يتقدمهم خلف النعش العمدة وخفره وشيخ البلد، أوصوا رجالهم وتابعيهم أن يخبروا أهل البلد بأن عمارة لم يُقتل، كل ما في الأمر أن قدمه انزلقت في الطين، وسقط أسفل أقدام الثور، ولقى حتفه، إنه القضاءُ والقدر.

حزن لحال صُبح القاصي والداني، والكلُّ في صمتٍ مطبقٍ لا يستطيعونَ الجهر بأن شيخ البلد قتل عمارة المسكين.

المرأة الثكلى لم تكف عن البكاء، ولم تجد ما تقوله وهي في جلسة عمدة البلد، أراد أن يُواسيها بعباراتٍ جافةٍ مقتضبةٍ، ويهبها جاموسة من مواشيه، عمارة المسكين ثمَّنه العمدة بجاموسة عُشر.

ترك لها ثلاثة من الصبيان، ورعاية الساقية، وثورًا عريضَ الرقبة مُغترًا بفحولتِه، وآخر ملطخَ الحوافر بدم صاحبه، آخاهما العمدة بجاموسة متوسطة العمر والحجم.

الأولادُ يعملونَ مكان أبيهم في أرضهم وأرض العمدة المستأجرة، وصُبح تجلسُ تحت شجرة التوت ساهمة متوجمة، تتنهدُ بحُرقة، وتتذكرُ الأيامَ الخوالي بصحبة عمارة.. لم تفعل شيئًا لمُواساته أكثر من بيع الثور القاتل واستبداله بآخر أقل حجمًا وأصغر سنًا، كل أوقاتها عصيبة، لكن أصعبها تلك الدقائق التي تُمسك فيها بذكر الثور، بعد أن تربط له جاموسة إحدى الفلاحات بجذع شجرة التوت، ما زالت صغيرة نضرة، ولغياب عمارة ألمٌ وأثرٌ يُدغدغان مشاعرها.

حسن أكبر أبنائها لا يتوقفُ حديثه عن الثأر لأبيه من قاتله، وأمُّه تلطم وجهها، وتؤكد كلام أتباع شيخ البلد أن ما حدث قضاء وقدر، ولم يقتل عمارة غير عَمَى الثور العملاق.

نظر لها بأسى وقهر، وخاطبها بمواساة:

- كلنا يعلم مَن قتل أبانا.

هتفت به بلوعةٍ وهي تسندُ رأسها الحزين إلى قبضة يدها الْمُرتجفة:

- لم يقتله غير الثور معصوب العينين.

هبّ واقفًا نافخًا صدره، مُغترًا بقوة بنيانه معبرًا عن نيته:

- بل قتله ثورٌ آخر هائجٌ، لا يخاف أحدًا، ولا يخشى العقاب.

شقيقاه بركة وقنديل يتابعان الحديثَ بتوتر وحُزن لا يقل عن حزن أخيهما الأكبر، لكن ما مِن أحد منهما يتكلم.

بركة يحملُ بين ضلوعه قلبًا رقيقا لا يعرف الغل والانتقام، ورث عن عمارة طيبته وحُب الساقية، وقنديل أصغر من أن يستوعب عقله كل ما يدور حوله، منذ أن عبر الزحام أمام قبر عائلته، ووقف مثل الجميع يشاهد كفن والده وهو يغادر النعش، ويستقر بجوف القبر، وهو يُقاوم غصة في قلبه ويُؤنب نفسه أنه ترك والده قبل قدوم شيخ البلد بدقائق، وهرول خلف بائع الحرنكش.

ورغم ما تحمله ملامحها من حُزن وكآبة، فإن جمالَ وجهها لا يُمكن محوه أو اقتلاع الحُسن منه، يظل الذهبُ ذهبًا وإن كساه التراب.

رفاعي بكل قسوته وغلظته، كلما مر عليها اقترب من الساقية، ومَد يديه يشرب من مائها، وهو يرمقها بنظرةٍ فاحصةٍ تنزل على جسدها كالسياط المبللة بالزيت، تلهب عقلها وروحها، وتشعرها بما آل إليه حالها بعد أن فقدت رجلها.

البلطجي لا تمنعُه حرمة الميت، ولا رائحة دم عمارة، التي ما زالت تفوحُ في أرجاء الساقية، يتجشأ بصوتٍ مرتفع، ويمسح فمه وشاربه الغليظ بطرف جلبابه الأزرق، ويقترب منها بوقاحةٍ، وهي تضع البرسيم أمام الثور معصوب العينين:

- تحتاجين مُساعدة يا صُبح؟

الأرملة المقهورة تملك ذكاءَ العفيفات، وحدس الإحساس بما تطويه القلوبُ الطامعة الغادرة، تجيبه دون أن تنظر إليه، ويدها تحرك البرسيم نحو فم الثور:

- تشكر يا سِي رفاعي.

تشير بيدها بقوةٍ واعتزاز نحو الأرض باتجاه حسن، الذي يحملُ فأس أبيه، ويعزق الأرض:

- عمارة ترك خلفه من لا يَحوجني لأحد.

قهقه بصوتٍ مرتفع ساخرًا، ومد يده نحو المشنة أسفل شجرة التوت، تناول منها حبة طماطم نضرة مضغها بفمه بشراهة:

- بارك الله لكِ في ورثة عمارة يا أم حسن.

رفاعي بعكس ما يُظهره للجميع، وكل مَن يهابونه ويتحاشون الصدام معه تجنبًا لشره وبطشه، يعتصر قلبه الحزن لعدم الإنجاب.. كيف بكل قوته وعظمتِه لم يستطع إنجابَ ولدٍ واحدٍ يحمل اسمَه، كيف لم يستطع فعل ما يفعله الفلاحون والكلافون وحتى المجاذيب والمتسولون والكلاب في الحقول؟.

صُبح جميلة ووَلود، أنجبت ثلاثة ذكور من عمارة الفلاح، راعي الساقية، لو أنه تزوجها لضمن الولد، وتمتع أيضًا بجمالها الذي طالما حسد أهل البلد عمارة عليه.. بلا شك لن تستطيعَ رفضَ الزواج منه، ما من أحدٍ في أبو طيب يستطيع عصيانه وإعلان عداوته.. فقط يُمهلها بعض الوقت لتنتهي من رثاء زوجها والانتحاب على مقتله، وبعدها يتزوجها وتأتي له بالولد، مَن أنجبت ثلاثة ذكور لن يُعجزها رابع يحمل اسم رفاعي.

جاموسة العمدة تضع مولودها، عجل صغير أدخلَ البهجة على بيت عمارة الغارق في الحزن منذ شهور، نساء البلد يُهنئن صُبح، ويُشجعنها على شراء ماكينة فرز اللبن؛ لتساعدها على المعيشة.

لم يستطع أحدٌ أن يُساندها ضد قاتل زوجها، لكنهم استطاعوا جمع بعض المال لها لشراء الماكينة، وأقساط اللبن المعدنية، وضعوا النقود بيد عبد الدايم الجمّال، يشتري لها كل ما يلزم من السبتية في رحلة عودته من المحروسة.

في الصباح الباكر تأتيها النساءُ من كل أنحاء البلد، يحملنَ أواني اللبن، أصبح عملها الجديد واضحًا ومُعلنًا للجميع.

تقفُ مشدودة الهامة بخفةٍ ونشاطٍ تفرز اللبن، وتفصل بين القشدة واللبن، يُساعدها الصغير قنديل، وهو يُلح عليها أن يذهب مع أقرانه لكُتاب الشيخ إسماعيل.

نعم ليذهب ويتعلم القراءة والكتابة، ويحفظ كتاب الله، سمعت من النساء أن مأمور المركز أخبرالعمدة ببشارة بناء مدرسة قريبًا بالبلد، لخدمة وتعليم أبناء القرى.. بلدتهم تقع وسط القرى، ومن حظ أهالي أبو طيب أن تقام المدرسة فوق أرضهم.

خاطبه حضرة الضابط جمال عبد الناصر وزير الداخلية بذلك، في خطاب رسمي، نجيب ورفاقه يؤكدون أن الكل سيتعلم ويدخلُ المدارس، حتى أبناء الفلاحين والفقراء، وإلا لِمَ كانت ثورتهم لو أنها لغيرهم؟

قنديل يملك من النباهة ما وضعه في صفوف المميزين في كُتاب الشيخ إسماعيل، سريع الحفظ والتعلم، وأكثر التلاميذ طاعة ورغبة في التعلم والفَهم.

بركة لا يُغادر الأرض والساقية إلا مع الغروب، مثل أبيه يُحب الأرض ورائحة الزرع وطعم التوت، حسن يُشارك أخاه أعباءَ العمل والأرض، إلا أن عقله لم يتوقف لحظة عن التفكير في الثأر لأبيه.. كلما مر بدوار العمدة أو لمح شيخ البلد، امتلأ قلبُه بالحقد والكراهية والرغبة في الانتقام، صورة أبيه وهو غارقٌ في دمه لا تبرح عقله أبدًا.

الكراهية بقعة سوداء تلوثُ الروحَ كلها.. المقتولُ حبيس القبر، والقاتل يصول ويجول بتفاخر، وتزداد سطوته يومًا بعد يوم، وقد مرت جريمته كما مرت جرائمُ أخرى قبلها، بلا حساب أو عقاب.

شيخ البلد يملك العددَ الأكبرَ من النخل في البلد، في كل موسم يجنى الكثير من وراء بيع البلح، أكثر من مئتي نخلة متراصة بشموخ، كأنها شواهد وأدلة على شموخه وثرائه.

عقلُ الفتى لا يتوقفُ عن التفكير، في كل لحظة يريح فيها ظهره يرى ارتفاع النخل يزداد سخطه وحنقه، يشعر بأن للنخل أفواهًا تضحك له بسخرية وتهتف به بعنادٍ وتهكُّمٍ:

- عمارة مات.. عمارة مات.

رأسُه مُشوش لا يوجد به غير رغبة الثأر، حتى إنه لم يلحظ ولا مرة تحرش رفاعي بأمه، لا يمر يومٌ دون أن يأتي للساقية ويشرب من قللها، كالذئب يحومُ حول حظيرة الدجاج.

نظراته تزدادُ وقاحة، وفمُه اعتاد مُغازلة الأرملة، حتى قالها صريحة وعبّر عن رغبته في الزواج منها.

وقفَ خلفها، وهي تحتَ جسد الثور الضخم، تمسك ذكره وتشجِّعه بصفير فمِها، أفزعتها رؤيته ونظراته الوقحة نحو قبضةِ يدِها، وهو يهمسُ لها بصوتِه الأجش:

- لو أن للثور لسانًا، لشكرك على صُنع سعادتِه.

وقفت أمامه مُرتعدة مهدودة الكيان، وهي تسمعُ كلماتِه وتفهم نياته، أَبعدَ عمارة الطيب المُستظل بشجرة التوت تتزوجُ مُجرمًا بلطجيًا مُلوثَ اليد بالدم والحرق والنهب؟.

تراجعت للخلف تحتمي بجذع شجرة التوت، بعد أن أنهى الثور مُهمته وهي تهتفُ كمَن لدغها عقرب:

- تريدُ الزواجَ بي أنا؟!

داعبَ شاربه بأنامله بوقاحةٍ وصبيانيةٍ لا تليقان بجبروته، وقال:

- ومَن هو أفضل لك منّي؟!

أجابت بامتعاض، وملامحُ الكراهية تتجسدُ بعينيها النجلاوين اللتين لم تكفا بَعد عن بُكاء عمارة:

- ومَن أخبركَ بأنني أريدُ الزواج؟

أجاب مبتسمًا:

- لا يهم، ما دمت أنا أردت.. لعلي أفضلُ من الثور.

ازداد جسدُها التصاقًا بجذع شجرة التوت، كما ازداد صوتها حِدةً وارتفاعًا:

- لن أتزوج يا رفاعي، ولا نية لي في ذلك.

لمحت الغضبَ يتطايرُ من وجهه، وتحولت ابتسامته لتجهم وضيق، حتى رمقته بنظرة لا تخلو من السخرية، وقالت بصوتٍ أقل حدة:

- حسبتك أتيتَ بعروس لحسن، ولد عمارة، الذي أصبح رجلًا.

رمقها بنظرة غضب عارم، وهَمّ بالانقضاض عليها، وشخر بصوت مرتفع صارم:

- على آخر الزمان.. رفاعي يُصبح خاطبة لأبناء الفلاحين.

أقلقها تحوله، وأصبحت تلف بجسدها تحتمي بجذع الشجرة من الخلف، وهي تقولُ برجفةٍ واضحةٍ في صوتِها:

- اذهب واترك الفلاحين وأبناءهم في حالهم يا رفاعي.

هَمّ أن يصيح ويتوعد مرة أخرى قبل أن يلمح بركة يأتي نحوهما، ويتراجع عن نيتِه، ويكتفي بأن يبصق على الأرض، وهو يتحركُ ويُوليها ظهره، حطم روحها بإعلانه رغبته.

كم من المصائب لم تأتِ بعد؟

ألم يَكفِهم قتلُ عمارة، وما زالوا يَطمعونَ فيما ترك، الشر في هذا البلد كَحبّات العقد، ما إن ينفك حتى تسقط حباته، واحدةً تلو الأخرى كحجارةٍ عملاقةٍ صلبةٍ تحطم الرءوس والقلوب.

جلسَ حسن في صلاة الجمعة بمسجد أبو طيب في الصفوف الخلفية، رغم أنه من أول الذاهبين قبل الأذان. الشيخُ درويش يخطب بحماس، ويتحدثُ عن شجاعة وبسالة المسلمين يوم بدر، لكن عقل الفتى لا يعي ولا يهتم سوى بمتابعة شيخ البلد الجالس في الصف الأول.

الرجل لا يُفوِّت صلاة في المسجد إلا لظروف قهرية، الأشرار يجدون في صلاة الجماعة وسط الناس غطاءً مُحكمًا لإخفاء سوء نفوسِهم.

بعد الفجر حملَ قفص التوت، وذهب للبندر يبيعُ ما فيه في السوق، لم يفعلها عمارة من قبل وباع التوت، لكن حسن فعلها، وتمزقت أطرافه من فروع شجر التوت، وهو يتنقل بين أغصانها ليجمعَ أكبرَ كميةٍ من حباتها.

ثمنُ التوت كافٍ لشراء جركن جاز.

جلس من الظهر وحتى قبل المغرب بقليل على قهوة البندر قبل أن يعودَ، ويتجه لمزرعة النخل الخاصة بشيخ البلد، كوزٌ مملوءٌ بالجاز كان نصيب قلب كل نخلة بعد أن يتسلقها بخفةٍ وسُرعةٍ.

صُبح تجلسُ أمام البيت في هلع وهي تنتظرُ عودة حسن، لم يتغيب عن البيت من قبل لما بعد العشاء، الفزعُ يتخللُ روحها كما تتخلل القلل جوف الساقية مع كل دوران.. هل أخذته الجنية كما أخذت عمَّه فتوح من قبل، أو هذا هو ثأر رفاعي منها لرفضها الزواج منه؟.

أيقظت بركة ولم يفعل شيئًا غير الجلوس مُتجهمًا بجوارها، هو أطيبُ من أن يجد ما يُطمئن به قلب أمه، لم يُغمض لها جفن، حتى وجدت حسن أمامها بعد الشروق بملابس متسخةٍ، وتفوح منه رائحة الجاز، هبّت واقفة ولطمته على وجهه فور اقترابه، ثم ضمته إلى صدرها بحرقةٍ ولوعةٍ:

- أين كنت يا زرع الشياطين؟

ربتَ على ظهرها، ولم يبتعد عن مُحيط ذراعيها، وأجاب بصوتٍ مُجهدٍ:

- تأخر البيع حتى حانت صلاة العشاء، ولم أدر بنفسي إلا وغلبني النوم بمسجد الصوالحة في المركز حتى الصباح.

قلبُ الأم يخبرها بكذب الفتى، ورائحة الجاز تملأ أنفها لتسأله باندهاش:

- ومَن أخبرك بأننا في حاجة لبيع التوت، ومن أين أتت رائحة الجاز؟

باغته سؤالها، وحاول المراوغة، وهو يتكلم مُتجنبًا النظر في عينيها المُحدّقتين فيه.

الكذبُ هو الخيار الأقرب لعقول الخائفين، ليُجيبها بتلعثم:

- بائع الجاز علق لجام حمار عربته تحت عجلاتها فساعدته، ولا شك أنه أصابني مما يحمل رائحة.

قبل أن تصرخ بوجهه، وتخبره بأنها لا تصدق حرفًا مما يقول، لمحت أولى القادمات من النساء، وهي تحمل قسط اللبن فوق رأسها لتدفعه بيدها لداخل البيت.

ظلت طوال النهار مُضطربة خائفة، لا بد أن تزوِّج حسن، الزواج كفيلٌ بأن يمحي من عقله رغبته في الثأر وتهوّره.

زيارة للمقام بعد العصرية جعلتها تهدأ قليلًا، وجلست بجواره تتضرع وتلحُّ في السؤال والرجاء على الشيخ شفيق أن يهدي لها ابنها، ويُبعد عنها شر رفاعي، وشيخ البلد.. دعاؤها صادقٌ حتى إنها لم تشعر بحُسنى التي جلست بجوارها إلا عندما ربتت على كتفها، لا تقلّ عنها في جمال الطلعة، غير أن صُبح أكثرُ رشاقة وخفة. تطلعت في وجهها بدهشةٍ وشعرت بها قلقة وجلة مُقدمة على شيء تكرهه وتبغضه، حتى سمعت صوتها الأشبه بالهمس، وهي تتكلمُ بصوتٍ مخنوق مُلتاع:

- أخبركِ رفاعي برغبته في الزواج منك، وما زال ينتظر منك الرد.

اجتاحتها الدهشة وعقدت لسانها، فظلت تحدق في وجه حُسنى صامتة مذهولة، حتى استطردت الأخيرة بعد أن شعرت بصدمتها:

- رفاعي رجلٌ ولا كل الرجال، وأنتِ بحاجة للزواج ولرجل يحميكِ بعد عمارة.

تخلت عن صمتها، وتغلبت على دهشتها بعد أن فطنت أنها أمام امرأة مغلوبة على أمرها:

- وما حاجته إليَّ وأنتِ موجودة؟!

أجابت بانكسار:

- لم أجلب له الولد، وأنتِ جلبتِ لعمارة ثلاثة.

فكرت في الرد، لكنها أشفقت على جارتها التي تلألأ الدمع في مقلتيها، فأشاحت بوجهها عنها، وهي تقف مغادرة، وتكتفي بأن ربتت على ظهرها وقالت:

- لا زَوجَ لي بعد عمارة.

المجلسُ بدوار العمدة مُحتشدٌ بكبار البلد وأعيانها، والنقاش مُحتدٌ غاضبٌ بعد أن تسمم نخل شيخ البلد، وتساقط واحدة تلو الأخرى.

خسارة فادحة وقعت فوق رأسَ الرجل، عشرون نخلة دفعة واحدة، زرع سنوات طويلة تساقط بين يوم وليلة؛ كأوراق الشجر الذابلة.

هيبة شيخ البلد في مهب الريح، لا بد من الإمساك بالفاعل، وقطع رأسِه مِثلما قطع رءوس النخل المُثمر.

الصياحُ والهتافُ يتداخلان، ووحده شيخ البلد ظل صامتًا يكتم غيظه وحنقه وهو يشعر بحجم الكارثة، ضياع الثروة يهون بجانب ضياع الهيبة، إذا ترك من تجرأ عليه وسمم نخله، غدًا يتجرأ عليه الآخرون.

العُمدة أرسل للمركز يخبرهم بأمر الواقعة، شدد عليه المأمور من قبل أن يستدعيه في الجرائم، ولا يتصرف فيها وحده، الجريمة واضحة جلية، لا تحتاج لخبراء، أحدهم سمَّم النخل بالجاز.

عقلُ شيخ البلد لا يتوقف عن التفكير، يشتبه في كل رجل ظلمه، أو اغتصب رزقه وأرضه، عشرات الرجال وقع ظلمه عليهم، مَن منهم فعلها؟

لعل أكثر مِن شخص فعلوها، واتحدوا ضده وضد جبروته، ووضعوا رأسه في الوحل بفعلتهم.

لم يُنجه من ألسنة الناس غير ما حدث لرزق، ابن الست محضية خبازة البلد، كلما نسي أهلُ أبو طيب الجنية وما تحويه الترعة الكبيرة من غموض وفزع، حدث ما يُذكِّرهم بها من جديد، ويُجدِّد الفزعَ بداخلهم.

اختفى رزق ليلتين، ولم تترك محضية شبرًا واحدًا في البلد لم تعدُ فيه صارخة، تولول وتسأل عن ابنها المفقود.. ليلتين قبل أن يظهر بجوار شاطئ الترعة في آخر نقطة في البلد مُبلل الملابس تمامًا، ويجلس مُقرفصًا مُتجمد الملامح، كأنه تمثالٌ، لا يتكلم ولا يقع بصره على شيء سوى الفراغ، وهزات رأسِه متتابعة منتظمة كرفرفة أجنحة الدبور.

ما حدث لرزق شغل العقولَ، وجَدَّد الحكايات وأعاد الجنية مرة أخرى بطلة الأحداث ومحور الأحاديث، لم تقتل رزق هذه المرة كمَن سبقوه، لكنها تركت لهم مسخًا لا يتحدث، ولا ينفعل ولا يفعل شيئًا سوى التحديق في الفراغ، وهز رأسه، والمشي ليل نهار بمحاذاة الترعة، وخلفه محضية لا تكف عن النواح وهو لا يشعر حتى بوجودها.

خفر شيخ البلد ومعاونوه وحتى كلافوه انطلقوا في كل شبر في البلد يتحسسون الأخبار؛ لعلهم يجدوا طرف خيط يوصلهم للفاعل.

وحدَه رفاعي لم يبذل أيَّ مجهود من أجل ولي نعمته، فقط غمرت السعادة قلبه، وارتدى جلبابه النظيف، وفرك طرفي شاربه، وتوجه نحو الساقية بخطواتٍ واثقةٍ.

صُبح قابعة في مكانها الثابت تحت شجرة التوت، بيدها سعف نخيل تصنع منه كوزًا لجمع التوت، اقترب منها كريح الخريف القاسية تقتلعُ أوراق الشجر من منبتها.

لم يشرب من قلل الساقية، لا حاجة له في المواربة، وكل شيء أصبح مُعلنًا وواضحًا بعد حديث حُسنى المغلوبة على أمرها.. تنحنح مُعلنًا عن قوته ورجولته، وحدّثها بصوت واثق يأتي من أعماقِه:

- أين حسن يا أم حسن؟

دهشها سؤاله، ورغم ذلك أجابت دون اكتراث:

- في الحوض القبلي عند أرض العمدة.

لمحت بوجهه نظرة لم ترها بملامحه من قبل، فاستطردت متسائلة:

- لماذا تسأل عنه؟

جلسَ بجوارها لأول مرة، وهو يسندُ ظهره إلى جذع شجرة التوت، ويُداعبُ قصاصات سعف النخيل، ويُحدِّثها بصوتٍ غلفه بصبغة الناصح المهتم:

- شيخُ البلد يبحثُ عن قاتل نخله.

بَهتها قوله، وانتفضت واقفة ملتاعة، وشكوكها تتأكد برأسها، تسمم النخل ورائحة الجاز بملابس حسن في تلك الليلة المشئومة، فصاحت به هاتفة بجزع:

- وما شأن ابني بذلك؟!

أشار لها بخبث وشر واضحين أن تخفض صوتها، وقال:

- لا تخافي.. لا أحدَ غيري يعلم بما فعل.

تُصدقه، وتعرف أنه لن يتحدثَ بكل هذه الثقة لولا يقينه أن حسن هو مَن فعلها، ومع ذلك صاحت محاولة بيأس أن تحبط محاولته لإلصاق التهمة بابنها:

- لا، لم يفعل شيئًا.. حسن لا ذنب له، ولا عهد له بأفعال المجرمين الغدارين، ابتلع إهانتها، وأخرج من جيبه سيجارة لف، أشعلها ببُطء حطم روحها، وقال:

- بل فعل، ولن أخبر أحدًا بذلك.

رمقها بنظرة مُتفحصة، ثم استطرد بابتسامةٍ كشفت عن اصفرار أسنانه:

- لا يمكن بأي حال أن أكشف سرَّ أخٍ لأبنائي.

فهمت ما يرمي إليه، ووقع تهديده الواضح عليها بحُزن يفوق يوم رؤية عمارة غارقًا في دمه.

أراح حسن قلبه بما فعل، وكتب عليها الوجعَ والشقاءَ جرّاء فعله، أتستبدلُ بعمارة أطيب رجال القرية، رفاعي أكثرهم شرًا وخبثًا على الإطلاق؟.

3

المولد

لم تنجح محاولاتُ حسن في منع زواج رفاعي من أمه المكلومة، وكيف يفعلها وقد أخبره البلطجي المجرم بأنه تتبعه منذ أن اشترى الجاز من البندر بثمن حبات التوت.

الملعونُ الخبيثُ تَتَبَّعه، وتركه يُتِمُّ جريمته، ويقتل النخل ليتسنى له المُقايضة، إما الزواج من أمه، أو تقديمه لشيخ البلد الباحث عن عَودة هيبته، لا عيب في زواج صُبح بعد رحيل زوجها، العيب يكمُن في أن الزوج هو رفاعي، والكلُّ بالبلد يعلم مَن هو رفاعي.

أصبح لرفاعي داران، كلما أرادَ جَذْبَ صُبح من ذراعها، وعاشرها كزوج قوي يبحث عن الخلفة والذرية، فوق فراش المرحوم عمارة الذي لم يتغير منه شيء غير غطاء من القماش.

ثلاثة أشهر لم تتغير مشاعرها نحوه، يجثم عليها بجسده وتقاوم حزنها وبغضها له حتى ينتهي ويُشعل سيجارته وهو يمسح عرقه بجلبابها الملقى بجوارهما.

فبعد عناق العصفور تُعانق الغراب، بعد رقة عمارة وحيائه تجدُ نفسها ذبيحة بلا قوَّة بين يدي رفاعي، يُجردها من ملابسها بوقاحة فور دخول الدار وقبل أن تجمعهما حجرتها.

لأول مرة تشعر بأنها مربوطة بجذع شجرة التوت، وفوقها ثورها المُفعم بالفحولة، ورغم أنه تزوجها بحثًا عن الولد والوريث، فإنه كلما خلى بها أَسَرَه جمالها وقوامُها الممشوق اللذان لا يُقارنان بأي شكل بحُسنى بالغة العرض، كثيفة اللحم.

تعلم غايته منها، الولد ووارث سمعته السيئة وإجرامه، يا سوء حظها، وسواد قدرها، بعد كل ما حدث يخرج من أحشائها وريثُ رفاعي المجرم، ودَّت لو أنها قتلت نفسَها وارتاحت، لكن نظرة واحدة لوجه صغيرها قنديل ترجعها لعقلها، وتثنيها عن رغبتها، وتجعلها تتجرع قدرها بصبر واحتساب.

الرجلُ المجرمُ فطرَ قلبي امرأتين مرة واحدة بفعلته، حُسنى تبكي وتندبُ بختها وبور رحمها، وتوقف منقدها عن طبخ الفول النابت للمساكين والمجاذيب، وصُبح تبكي حظها وورطتها، وورطة ابنها البكري الذي غيبت رغبته بالثأر عقله.

فقط يظلُّ طوالَ النهار في الأرض، ولا يعودُ للدار إلا بعد صلاة العشاء لينامَ دون أن يُكلم أحدًا.

جدرانُ المدرسة الجديدة هدية الضباط ترتفع كما يرتفع بطن صُبح وينتفخ بوريث رفاعي، السعادة تغمر قلبه، ورأسه مرتفع يكاد يلامس السماء، وقد اقترب وصول المولود.

حُسنى هي العاقر، وجه الشؤم، وقد فك الله كربه، وعوَّضه رحِمُ صُبح عن خيبة رجائه.

مجلسُ العمدة تحول لمجلس تتناقل فيه الأخبارُ والحديث في السياسة، الأخبار تأتيهم من المحروسة تتحدثُ عن قوة وصلابة وشجاعة عبد الناصر القائد المهيب.. لا يخافُ أحدًا، ولا يعمل للعالم كله حسابًا، ولدٌ من ظهر ولد، ولا يخاف مواجهة أعدائه، ويَعتدُّ دومًا برجاله وجنوده وقوتهم، الكل يتحدث عن اقتراب لحظة الفتك باليهود، والقضاء على كيانهم وأحلامهم.

تغنوا كلَّ يوم ببطولة الرجل وأفعاله، رقصوا وهللوا وطافوا البلد بالمزمار البلدي والهُتاف؛ بعد أن أَمَّمَ القناة، وأعلن عن البدء في بناء السد.

لن تغرقَ بلدتهم بسبب الفيضان بعد ذلك، يمكنهم زراعة العديد من الأفدنة المتروكة منذ عقود بلا زراعةٍ أو رعايةٍ، الأفدنة الجديدة بالتأكيد ستكون من نصيب العمدة وشيخ البلد.

الآمالُ تتضاعفُ وتتزايد، ولم تعد تأتي سيرة باشوات القرى من حولهم إلا بالتهكم والتشفي، بعد أن مات منهم مَن مات بحسرته، وهاجر مَن هاجر، وسُجن مَن سُجن.

الشيخ إسماعيل تحامَل على جسدِه المريض، واتكأ على عكازه، وذهبَ بنفسِه للساقية يطالب صُبح ويحثها على أن تجد لقنديل مكانًا في صفوف تلاميذ المدرسة الجديدة، فور بدء عملِها.

قنديل ولدٌ نبيهٌ حاذقٌ مُشتعلُ الفطنة والذكاء، لكن أينما نبت الخيرُ، نبت بجواره الشر وزرع الشياطين.

المعلم توفيق، كبيرُ الشدايدة يطلبُ من شيخ البلد إجرام رفاعي مدفوعَ الأجر، عدوٌ جديدٌ للمعلم تمثل في الجمعية الزراعية الجديدة في البندر، تراجعت تجارته وتزاحم الفلاحونَ على شراء حاجتهم من الجمعية، وهُم يهتفونَ باسم جمال .

وقفُ المصالح والأرزاق يتطلبُ أن يحرق رفاعي الجمعية، بما فيها، حتى تعود للرجل تجارته، وتعاود محفظته الانتفاخ بالبنكنوت.

رفاعي لا يتردَّدُ ولا يهاب أيَّ فعل، تغريه الشقاوة وأفعال الشر والإجرام، لم يفرح مع الفارحين لسماع ما يأتيهم من أخبار من المحروسة، لا يعنيه الأمر برمته، ولا يُفكر في شيء غير انتظار المولود الذي أوشك على الوصول.

جركن جاز وعود ثقاب، كل ما احتاجه لتنفيذ رغبة المعلم وشيخ البلد والفوز ببضعة جنيهات.

أمامَ باب الجمعية عسكري درك، يحمل بندقية ميري، ويجلسُ مفرود الظهر مهابَ الطلعة، الليلُ يسترُ رفاعي وأمثاله، دورتان حول مبنى الجمعية وحسم أمره أن يلقي جازه من النافذة الخلفية، وينتهي من مُهمته.

النافذة مُرتفعة ويحتاجُ لِمَا يقفُ عليه حتى يصل إليها، قفصان أخذهما خلسة من فرشة بائع نائم ينتظر السوق كانا كافيين ليقف عليهما، ويصل للنافذة، القفصان ضعيفا القوام، لم يتحملا جسده الضخم فطقطقا وانكسرا تحت ثقل جسده، ويسقط مُحدثًا جلبة أتت بالعسكري مهرولًا ليصيحَ بأعلى صوته:

- مِين هناك؟

يَفزع رفاعي ويهم في العدو قبل أن يتعثر في طرف جلبابه، ويقع على وجهه، والعسكرى يقترب بشجاعة وحماس وهو يتابع صياحه:

- قِف عندك يا مُجرم يا لص.

رفاعي يفعلها لأول مرة، ويُهرول مُرتعبًا، والعسكري خلفه يُطلق الرصاصات من بندقيته الميري، ويقع صوت بارودها في قلب رفاعي

بالخوف والفزع، حتى إنه لم ينتبه لقدوم القطار، وهو يعبر قضبان السكة الحديد.

لا يتخيلُ الجبناء أنَّ المُجرمين العتاة يخافون مثلهم وأكثر.

تداخلت الأصواتُ كلها في مزيج نادر في ثانية واحدة، صوتُ رصاصة العسكري المُنطلقة نحو السماء، وصوت نفير القطار، وصرخة رفاعي الملتاعة قبل أن يمزقَ القطارُ جسدَه بثانيةٍ واحدةٍ.

مات رفاعي.. مات المُجرم.

قتله فزعُه وهروبُه من العسكري أم قتلته عجلاتُ القطار؟، لا يهم ما دام قد مات، ومات شرُّه للأبد.

حُسنى تصرخُ وتنوح وتلطم وجهها، وصُبح تبكي من فرحتِها والخلاص من البلطجي المُجرم.. تقفُ بجوار المقام، تنهال بالشكر على الشيخ شفيق أبو طيب، رغم ألم أحشائها، وضربات الجنين لجدار بطنها.

الجنازة كثيفة الحضور بعد أن أفرج المستشفى الميري عن بقايا جثة رفاعي، أوما تبقى منها، واستخلصوه من بين أنياب عجلات القطار المفترسة.

أغلبهم لم يأتِ للمُواساة والعِظة، إنما أراد أن يرى نهاية مَن أفزعهم وروَّعهم لسنوات، وهو مُغطى بكفن نشع منه الدم، وتكور كالبُقجة، وهو يحوي بقاياه.

رحلت حُسنى عائدة لبلدتها الأصلية البعيدة، وتركت دار رفاعي لوريثه القادم من رَحم ضرتها.

عانت الداية، وتعرق جبينُها حتى أخرجت وريث رفاعي من بطن صُبح، التي لم تكف عن الألم والصراخ إلا بعد خروجه من بطنها.

جذبت المولود أخيرًا وضربت على ظهره قبل أن تصيحَ بدهشةٍ سمعتها صُبح بالكاد:

- إنها بنت!

وكأنها لم تتوقع أن يُنجب رفاعي بكل قسوته وجبروته أنثى!

تجمد بصر صُبح على وجه المولودة، تتابعها وهي تحرك أطرافها الصغيرة بعشوائية، ثم تسعل وينطلق صوت بكائها الرفيع الحاد لأول مرة.

اشترت عنايات دقَّاق عجين، وصينية من الألومنيوم وقدرة من النحاس وفتحت جدارًا ببيتها، وأصبحت تصنع طعمية لا تختلف عن نظيرتها التي تأتي من البندر.

أكلُ الطعمية والفول المدمس في الصباح سعادة لم يعرفها أهلُ البلد من قبل، حتى تلاميذ المدرسة الجديدة يشترون منها في طريقهم للمدرسة بكوز ذرة جاف.

قنديل يُحب طعمية عنايات، وكثيرًا ما يشترى قرطاسًا به عدة أقراص، ليتناولها مع أمه وأخويه، وهم يستظلون بشجرة التوت في الساقية.

وقنديل ساعة العصاري يشترى بكوز ذرة لفة سردين من نجية، وتزيده لطيبته نصف ليمونة.

رغبَ الكثيرونَ في شراء دار رفاعي من صُبح، لكنها أبت ورفضت رفضًا قاطعًا حاسمًا:

– الدار لابنتِه ووريثتِه الوحيدة نسيم، تركها يتيمة لم ترَ وجهه، والدار دارها تفعل بها ما تشاء، عندما تكبر ويشتد عودُها.

حُسنى لن تعود، ولا يُوجد لرفاعي أقارب، أو ورثة غير اليتيمة نسيم، الصغيرة فاقت أمها في الحُسن، وتَزين وجهها الباسم بغمازتين ظاهرتين دون حتى أن تبتسم.

آية ربانيّة في الجَمال، لا يمكن تصور أو قبول أنها ابنة القاسي، غليظ القلب رفاعي المجرم، أتمت عامها الثالث، ولا تكف عن اللهو في أرض الساقية، بمرح تطارد الفراشات، وتتناول حبات التوت من الأرض، تأكلها بنهم وسعادة وتتلون شفتاها بلونه الأحمر.

يُداعبها حَسن، وقد عادت لوجهه البشاشة، ولرُوحِه الراحة والهدوء، بعد أن تحررت أمه من رفاعي.

حتى بركة يتفانى في رعايتها، وكثيرًا ما يحملها فوق عُنقِه، ويجعلها تنتقي حبات التوت بأصابعها الصغيرة، من بين الأغصان.

تنتظرُ عودة قنديل من المدرسة وتهرولُ ناحيته لتشاركة جلسته مع كُتبه وكراساته تحت الشجرة، وتردد خلفه ما تعلم في المدرسة.. علمها نُطق الحروفِ، تقمص دور المُعلم ومارسَ معها هُوايته في الشرح والتلقين.

هذا العامُ لن يأتي فيضانٌ، الكلُّ عرف ذلك، وألقى العُمدة أوامره رغم مرضه للفلاحين أن يجرفوا أرض المستنقع مما فيها.

يُمكنهم البدءُ في زراعتِها في العام المُقبل على أقصى تقدير، نِصفها له والنصفُ الآخر لشيخ البلد، لو أنهم حتى استطاعوا زراعة الأرض الجديدة بالبرسيم، لضمنوا غذاءً لبهائمهم وزيادة عددها.

الرءوسُ مرفوعة في البلد وما حولها من بلاد، وقد أنعمَ الله عليهم بالنصر على العدوان، وسُمى أكثر من مولود باسم جَمال. العُمدة تحدث أكثر من مرة مع جالسيه أن المأمور أخبره بإمكانية تطوع أبناء البلد بالجيش، والفوز بالبدلة الميري وشرف الجندية.. ومَن ذا الذي لا تغريه الهيبة والوجاهة وحُسن المستقبل؟.

تهلل وجه صُبح عند رؤيتها حسن بعد عودتِه وغيابه الطويل، وهو يرتدي البدلة الميري، ورأسه الحليق وهامته المرفوعة، رغم أنها من فرط حبها وخوفها عليه عارضت رغبته في التطوع بالبداية.

العريف حسن مبهورٌ بما تعلم من مهارات، ويجلسُ مع رفاقه أمام دكان صقر البقال في المساء، يُحدِّثهم عن البنادق والمدافع، والدبابات وعظيم صوت الطائرات.. خفر شيخ البلد يحيونه بتقدير، ويخاطبونه بحضرة الصول، ولم يعد أحد منهم يُخاطبه باسمه مجردًا.

الشيخ محفوظ شيخ مسجد أبو طيب بعد رحيل الشيخ درويش، يُلح عليه في الصلح مع شيخ البلد ونسيان ما كان، يُحدثه بصدق الحديث والرغبة في السلام بصوتِه المُفعم بالطيبة:

- لا أحد يموتُ من لطمة على وجهه يا ابن عمارة، إنه القضاء والقدر وحكمة الخالق.

الأمرُ ليس بهذه السهولة، والقتلُ لا يمر هكذا بعبارات الاعتذار، والحديث عن القضاء والقدر والنصيب، لكن خمسة قراريط مِلك من الأرض الجديدة والزواج من ابنة شيخ البلد دية يليق معها التسامحُ والغفرانُ.

تقبّل شيخ البلد، رغم جبروته، الوساطة، وأنعم على صهره بالقراريط الخمسة، وشوار تندر عليه كل أهلُ البلد، بعد أن أصرت صُبح الطامحة للسلام على أن تدفع لابنها البكري مهرًا خمسين جنيهًا.

شيخُ البلد لا يتصالحُ مع أحدٍ، لكن مع مرتادي زي الجنود فالأمرُ يختلف، خصوصًا أنه لم يسامح نفسه أبدًا على موت عمارة وهو لم يقصده.

أيامٌ متتالية يقضيها بين أقرانِه على الجبهة، تلتها أيامٌ يقضيها في جنة عواطف عروسِه الفاتنة، ذات القوام الشهي الذي يفوقُ مَن يَراهنّ من حسناوات في شوارع المحروسة وعلى محطة الترام.

في إجازته يتنقلُ بين ذراعي عواطف المُحبة المُخلصة وأرضهم لُمساعدة بركة المُجتهد الذي يرعى الأرض بلا كللٍ أو ملل، وبين مُجالسة صهره ورفاقِه في المساء، وهُم يستمعونَ لصوت الراديو وأغنيات عبد الحليم وأم كلثوم وعبد الوهاب.

لا أحدَ يملكُ راديو غير شيخ البلد والعُمدة، لكن العمدة وحده أصبح يملك بدواره تليفون ميري سلمه له مأمور المركز.

كفر أبو طيب لا يتوقعُ غدَها أحدٌ، يتلاصقُ فيها الخير بجوار الشر، كأنهما من نبتةٍ واحدةٍ.

ابن عمارة القتيل يُصاهر قاتل والده، ورفاعي المجرم يهب البلد صبية ما تحل بمكان حتى تنشرَ فيه البهجة والمحبة، وأرض المستنقع بعد سكن الضفادع والثعابين تصبح بستانًا مزدهرًا بالزرع والثمار.

احتشد البلد بالزوار والأكابر من كل البلاد، وحتى مأمور المركز ومفتش الصحة ورئيس الجمعية الزراعية؛ لتوديع جثمان العمدة عبد الرازق.

كانت للرجل مكانة وحظوة وعَلاقات طيبة مترامية الأطراف، تحدث المأمور أن العمودية لن تغادر بيت أولاد سلامة، وأن لطفي الابن الأكبر لعبد الرازق سيخلف أباه، ويصبح عمدة أبو طيب، ومَن غيره يملكُ الحيازة الأكبر للأرض وميراث النفوذ؟، حتى وإن كان الجميع يعلمون ولع الشاب بالغوازي ويطاردهن في الموالد في كل مكان.

عريضُ الجثة بقامةٍ فارعةِ الطول، عرضه يجعل منه عملاقًا لم يخفف وقع رؤيته على النفوس غير وسامته، ووجه شديد الاستدارة والبياض، وحُمرة وجنتيه من فرط صحته.

خطاباتُ عبد الناصر تتوالى، والحديث عن قرب مواجهة العدو والقضاء عليه أصبحت وشيكة، حتى بعد انتهاء الوحدة بين مصر وسوريا.

الرغبة في مُنازلة العدو وتلقينه درسًا لا يُنسى حلمٌ للجميع، ومطلبٌ على كل الألسنة.

قنديل أنهى الابتدائية، ولم تحتج صُبح لناصح لتجعله يذهب للبندر كل صباح كى يُكمل تعليمه، حصوله على التوجيهية أصبح حتميًا، ولا يعوق حدوثه شيء وهو من عُرف عنه النباهة والتميز بين كل أقرانه.

مَاكينة فرز اللبن ورعاية الساقية واجتهاد بركة تسمح لها أن ترعاه في دراسته بالمركز، عامًا بعد عام.

عَلم نسيم القراءة والكتابة، وحتى بركة علّمه الحساب، ولم يبخل على صغار شقيقيه حسن وبركة في تعليمهم الحروف والهجاء، وأخذهم بيده لكُتاب الشيخ إبراهيم، ابن المرحوم الشيخ إسماعيل.

يجلسُ مع سعد ونورا ابني حسن، وبهية وابتهاج بنتي بركة، ومعهم نسيم، ويقص عليهم القصص والحكايات تحت شجرة التوت.

وحدَه في البلد يؤكد لهم أن الترعة الكبيرة لا توجد بها جنية، حكايته لا تسليهم وتطربهم مثل حكايات جدتهم عن الجنية، وكيف عشقت جَدهم فتوح، وكان عظيمَ الحُسن والطالع.

الصغار تفتنهم حكاياتُ الجدة، ويفترشون حجرها مُنصتين وجلين مستمتعين بقصصها، وحكاية الطيب عمارة، زارع شجرة التوت.

انطلقت الزغاريد من بيت شيخ البلد وكل الأهالي يُودعونه وهو يرتدي ملابس الإحرام، لقضاء فريضة الحج، ومعه رفقة لا بأس بها من رجال ونساء البلد من كبار السن.

الرجل لم يُفوت أبدًا صلاة، ولا ينقصه غير الحج، وهو في أواخر عمره، ابنته عواطف تودِّعه وتقبِّل رأسه، وهي تبكي رغم فرحها، وانطلاق الزغاريد من فمها، يغيب الأب عنها، وقد سبقه وغاب زوجها حسن منذ أكثر من شهرين، بعد أن زادت الشارات على كتفِه، وانتقل إلى مُعسكر جديد شرق القناة.

الناس في أبو طيب يتهامسونَ بدهشةٍ واستنكار بعد أن عرفوا أن عمدتهم لطفي قد أعلن عن سماحِه لبعض العُربان بإقامة المولد بالبلد.

الأرضُ الممتدة الواسعة بجوار مسجد أبو طيب والمقام مناسبة لاحتواء عربات المولد، وسُحّاره وبهلواناته ومجاذيبه، ومقيمى الليالي والزار، أبو طيب سيدخلها الغوازي، وسيرقصنَ بملابسهن اللامعة، وشعرهن المكشوف بجوار المقام.

لم يُعارضه أحدٌ، أو يجرؤ على نقاشِه، واكتفوا بالترحم على أبيه الذي رغم بطشه لم يفعلها، ويسمح للغوازي بالرقص بأبو طيب.

تهامست النساءُ عن طفاسة الرجل، وطمعِه، يجري خلف الغوازي رغم أنه متزوجٌ حورية من البندر، شقراء وما أندر الشقراوات ببيوت الفلاحين!. معتدلة الطول، ولها جسدٌ بض نضر يُحار الناظرون فيه، أيدققون بصرهم في جَمال وجهها وكثرة ألوانه، أم في جمال قوامها وكثرة منحنياته رغم حشمتها؟.. ولم يكن غريبًا أن يكون اسمها بدر كوجهها.

فَرح الصغارُ وهللوا، وابتاعوا الحمص والملبس والطراطير والعربات البلاستيكية التي تشبه عربة المأمور، حتى الفتيات اشترينَ العرائس القماش والحُلي البلاستيكة والمعدنية، واشترت النساء الشيلان ذات الألوان الزاهية. والكثير ممن اعترضوا وضربوا كفًا بكف من الرجال وهم يتحسرون ويقولون لا حول ولا قوة إلا بالله، تلاصقوا بأفواه مفتوحةٍ مندهشةٍ وهم يتابعون حركات الحاوي، ورقص النسناس بين

يدي القرداتي، ولم يتخلف أحدُهم عن الجلوس فوق المصاطب الخشبية، وهم يتابعون بافتتان رقص الغوازي وطربهن.

ثلاثُ ليالٍ لم تخفت فيها الضوضاءُ أو يقل الصخبُ، حتى انتهى المولد وغادر صُناعُه بعرباتهم لأرضٍ جديدةٍ.

رغم المولد وتلك الليالي التي لم يتذوق فيها لطفي طعم النوم وهو يحظى برقصات خاصة في دواره من أشد الغوازي جمالًا ودلالًا، فإنه قام بواجبات شيخ البلد في غيابه، وتابع بنفسه إرسال شباب البلد إلى المركز للالتحاق بالتجنيد.

لا أحدَ يتأخر عن نداء الوطن وأوامر المأمور.

وقف أبناءُ شيخ البلد يتابعونَ بفرحة خطاط المركز وهو يرسمُ على جدار بيتهم سفينة، ومجسمًا للكعبة الشريفة، ويخط تحتهما بخط سميك جُملة: حج مبرور وذنب مغفور.

الزغاريدُ تعلو في أول البلد عند الطريق الرئيسي مُعلنة عن وصول الحجيج، الكل يهرولُ بفرحةٍ وسعادةٍ لاستقبالهم، ووقفت عواطف واجمة قلقة، وهي تتفحصُ الوجوه، ولا تجد أباها بينهم.

الحاج شاكر طأطأ رأسه بأسف، وألقى عليهم نبأ وفاة شيخ البلد في الحج بعد أن أنهكه التعب، وألهبت رأسَه حرارة الشمس، ودُفن جثمانه هناك كما جرت العادة.

تبدلت الزغاريدُ بالصراخ والبكاء، وظلت عواطف تعدو في دوائر كالذبيحة لا تعرف ماذا تفعل، كانت أكثرَ أبنائه حبًا له وتعلقًا به، أهكذا يُفارقها أبوها دون وداع أو يتسنى لها أن تُلقي عليه نظرة أخيرة؟.

الشيخُ محفوظ يصيحُ في الجميع بالدعاء للرجل، والتوقف عن الصراخ وإغضاب الله، وأقاموا عليه صلاة الغائب.

عقلُ قنديل مُشوش، ولا يستوعب نهاية الرجل بكل ما فيها من رزق وحُسن خاتمة، لم يفكر مثل شقيقه الأكبر، لكنه كان مُوقنًا من نهاية مأساوية سوداء للرجل، جرّاء أفعالِه وتاريخه.

جلسَ في المسجد بعد صلاة العصر بجوار الشيخ محفوظ، ينهال عليه بالأسئلة، ويبحث لها عن إجابة:

- كيف يا سيدنا ينالُ رجلٌ مثل مسعود هذه النهاية وذلك الجزاء؟

يهز الشيخ رأسَه، ونصف جسده العلوي، ويفرد كفه فوق ركبة الفتى اليافع الحاذق:

- له في خلقه شئون يا ولدي.

يشتد الحنق بقلب الفتى، ويجز على أسنانه، وهو يسأله باستنكار:

- كيف له ذلك وهو قاتلٌ ومغتصبٌ لما عند غيره والكل يعلم ذلك؟.

يُقابلُ الشيخ غضب قنديل بابتسامة ويقول:

- وربك يعلم ما لا أعلم يا ولدي.

ويخبره بصوت خفيض، وهو يربتُ على يده، أن الحاج شاكر قصّ عليهم أن شيخ البلد فور وصولهم الحرم خر جسدُه، وأخذ يبكي وينتحب، ولم يترك صحن الحرم ساعة واحدة، أو يُعاود معهم للخيام، حتى أعياه طولُ التعبد وهتف وهو واقف وسطهم ورأسه ويديه للسماء: يارب، يا حي يا قيوم، ثم وقع وخرجت روحه أمام بصرهم، وكُفن في ملابس إحرامه ودُفن بها.

أهل أبو طيب لا يذكرونَ غير الفصل الأخير من القصص والحكايات، بعد أن كانت حكاياتهم عن رفاعي تحملُ التبجيل والترهيب من طيشِه وإجرامِه، لم يعُد يذكره أحدٌ إلا وهو يحكي كيف فرَ كالفأر من بندقية العسكري وأوقعه فزعه تحت عجلات القطار.

حتى شيخ البلد، تحول من رجل قاسٍ مُخيف لرجل لم يتناوله لسانٌ بغير الإعجاب من خاتمته، وما فيها من خير وإجلال، لم يعُد أحدٌ يذكر شيئًا عن بطشِه وشره وتاريخ طويل من اغتصاب الحقوق وحتى القتل.. فقط يتحدثون عن موتِه، وهو مُحرم يلبى دعوة الله، وحظى بقبر بالبقيع بجوار صحابة رسول الله، ويذكرون له أنه ربى أبناء حميدة بداره، وسعى مع الشيخ شفيق لبناء مسجد كبير، وزوّج ابنته لحسن، وأعطاه بضعة قراريط مِلك دية عن أبيه الذي قتله الثور مُغمض العينين.

قدرتهم فائقة في جعل أي قصة مثيرة تحمل العِظة بين طياتها، حتى إن كان بطلها رفاعي المجرم، أو شيخ البلد آكل الحقوق.

جلسة واحدةٌ بين لطفي ومأمور المركز، وحصل بعدها على توقيع قرار تعيين الحاج عبد السند شيخًا جديدًا للبلد خلفًا لمسعود.

منصبُ شيخ البلد عُرف دائمًا أنه للكبار من وُجهاء البلد، لذلك فعلها لطفي وعيّن أبا صديقه وخليله زيدان، رغم كِبر سنه وشيخوخته بعد أن أهدى المأمور ثلاثة أقفاص من الطيور، وكبشًا كبيرًا.

زيدان رفيق لطفي، وخليله المُقرب وصديقه في رحلاته خلف الغوازي وزيارة الموالد، رغم أن الفارق بينهما يتخطى عشر سنوات، فإن لطفي لم يجد له خليلًا ورفيقًا بأبو طيب أفضل منه.. تعامل معه على أنه مُساعده ومُدبر أموره، والقائم بأعمال شيخ البلد عوضًا عن أبيه محني الظهر من شدة كِبره.

عهد زيدان أكثر لُطفًا من مسعود، شابٌ وسيمٌ مُعتدٌ بنفسِه له شاربٌ رفيعٌ وقامة طويلة لجسد ممشوق متناسق، وابتسامة يهبها بطيب خاطر للصغير والكبير، وأهل البلد يعرفونَ مكانته عند العمدة، ولا غضاضة عندهم أن يحل محل أبيه في تعاملاتهم واحتياجاتهم.

لا يشغله شيء غير مُجالسة صديقِه العمدة، وسماع أغاني الراديو، وجلسة الضحك والسمر كل ليلة، لا ينقصُه غير زوجة وتكتمل صورته ووجاهته.. أصيلُ الحسب وجدُّه الكبير هو أبو طيب بنفسه، وابن عم

والده هو الشيخ شفيق صاحب المقام والكرامات، وله من الطين ما يجعله من الأعيان وأكابر البلد.

يشتري زجاجات العطر من البندر، ويملك كاريتة يقودها حصانٌ ذهبي اللون، يصولُ بها ويجولُ في أرجاء البلد يلقي التحية والسلام على الجميع بتقدير ومحبة.

يتابعُ بجدية كشوفات وأسماء المُجندين الجُدد من أبناء البلد، وتنفيذ تعليمات المركز، الأيامُ العصيبة تأتي، والحربُ تبدأ، والكل يقف حول دوار العمدة يستمعونَ لبيانات الجيش، ويُهللون لسماع الأخبار، وعدد الطائرات الساقطة للعدو.

الهُتافات في كل مكان باسم جمال، لذة الانتصار على العدو لا يُضاهيها شيء، ظل كل شيء على ما يُرام حتى رن تليفون العمدة الميري، وأخبره المأمور بأن للبلد شهيدًا سقط في الحرب.

مات حسن، وعاد جثمانه لأبو طيب محمولًا فوق أكتاف عدة جنود مُكفهري الوجوه، لم ينتهِ الزمن بعد مما يُخبئه لصُبح من مصائب.

تلازمت الأخبارُ السيئة مع وصول جُثمان الشهيد، الحربُ خاسرةٌ والعدو يتقدمُ ويعبرُ القناة. الصراخُ والعويلُ ينطلقان من بيت صُبح وبيت مسعود شيخ البلد، والجنازة يصيحُ فيها ويبكي الرجالُ والنساء، يبكون شهيدهم وخسارة الحرب.

الغمُّ والسوادُ يُخيمان على أبو طيب، وعواطف تسقطُ بين حين وآخر في إغماءة، وتتشنج، ويهب المقربون للهتاف بالأذان بأذنها حتى تهدأ وتستكين، فقدت الأب والزوج بين عشية وضحاها، لم تشف بعد من فقدان أبيها حتى سحق قلبَها خبرُ زوجها كالمطرقة.

وقف زيدان بجوار العمدة في عزاء حسن يساندان شقيقيه بركة وقنديل، لمح زيدان المُعتز بنفسه نسيم شقيقة الشهيد، وهي تلطم وتبكي أخاها، ما كثرة نبت الخير بقلب الشر بأبو طيب!.

الفتاة التي لم تتجاوز الستة عشر عامًا خطفت قلب زيدان صاحب رائحة العطر، الشاب الذي قابل من الغوازي العشرات، ورأى من الحسناوات ما يفوق حجمَ ذاكرتِه.

وقع في عِشق الصبية وأسرَه حسنُها وهو لم يرَها إلا وهي تبكي وتنتحب، لكنه الجَمال ونسج الغرام يجعلانا نرى حسن الزهرة وسط سواد الطين.

تحجج أكثر من مرة للذهاب لبيت صُبح، يُمني قلبه برؤية نسيم، لا يطمع في أكثر من نظرة لوجهها، صارحَ خليله بما يجيشُ بصدره وكيف تعلق بها فؤادُه ورغب بالزواج منها.

لطفي يُذكّره بمن تكون ومَن كان أبوها، لكن ماذا يصد القلوب بعد عشقها ليهتف بإصرار بوجهه:

- ابنة رفاعي أو ابنة الجن الأزرق، لا يهم.

العمدة يعرف عناد صديقه، ويعرف أن مَن يراه أمامه، عاشق أضناه العشقُ وتمكن من تلابيبه.

طرق برأسه قليلًا، ثم تحدث كرجل حكيم طاعن في السن:

- ليس قبل عام، بعد أن يهدأ الحزنُ في دارهم.

يا لوعة قلبك يا زيدان، عامٌ كاملٌ من الشوق والعشق المكتوم لأمرٌ شديدُ العذاب، لكن ماذا بيده غيرُ الانتظار واتخاذ الساقية محطته اليومية عله يلمحُ نسيم، وهو يتذكرُ صوت المغنواتي المنساب من الراديو:

على قد الشوق إللي في عيوني يا جميل سلم

أنا يا ما عيوني عليك سألوني ويا ما بتألم

ويتنهد بلوعة مُحب أعياه الغرامُ، وتمكن منه، وبدّلَ حاله وأنساه مُطاردة الغوازي.

4

شجرة التوت

وما أسوأ الشهوة إن أصابت القلبَ وتمكنت منه، وقادت العقلَ، وتحكمت فيه! أفدنة العمدة وقراريطه تتضاءل وتنقص، وينفرط عقدها مِن بين يده المُسرفة الضالة، يومًا بعد يوم.

الجري وراء الغوازي أفقد الرجلَ عقله وماله وأرضه، أصبحَ مكوثه بالمحروسة أضعاف ما يقضيه بأبو طيب، لا يعودُ إلا ليبيعَ الطين ويعود مهرولًا يُغازل الفاتنات، بما تحمله محفظته من نقود.. ومأمون كبيرُ عائلة كساب دائمًا هو المشتري، حلم الكسّابية أن تصبح العمودية بدارهم، لا ينقصهم من الوجاهة غير لقب ومنصب العمدة.

أصبحت أكبر حيازة للأرض عند كبيرهم مأمون، يملكُ عشرات الأفدنة والمئات من رءوس المواشي.. يتودَّدُ للمأمور ويُغدق عليه الهدايا، كلما تبدل المأمور وحلّ محله آخر جديد، كان أول المهنئين وأول المُصادقين.. صارمٌ جادٌ لا يشغله عن عمله وثروته وأرضه أي شيء، لم يعد لطفي يبيع بالقيراط، أصبح البيعُ بالفدان هو الأقرب للحدوث لضمان انتفاخ أكبر لمحفظته.

السُكر يطيح بعقله، وما أسهل فقدان نقودِه، بعد فقدان اتزانِه ورُشده!،

يمسك عصاه ويتمايلُ وهو يُغني:

الطشت قالي.. الطشت قالي

يا حلوة ياللى.. قومي استحمي

حتى يغيبَ عقله تمامًا، ويفقد وعيه ويستيقظ في الصباح على ضياع نقوده، يطيح في كل من حوله، ويُحطم كل ما تطاله يداه، ولا يوقفه غير وصول النجدة لتحمله للقسم، وتحدث الفضيحة التي لم يَحتج مأمون لأكثر منها؛ لتنتقل العمودية بعدها من دار أولاد سلامة لدار الكسابية.

الأحداثُ الجسام بأبو طيب لا يتبقى منها لأهل البلد غير الحواديت والحكايات، في الحقول وفوق المصاطب يجلسون وتنساب القصصُ من أفواههم، وكأنهم حُكماء نبلاء، لا تعنيهم غير العِظة.

مأمون لا يُشبه لطفي، أو أباه عبد الرازق، الرجلُ يحملُ بقلبه إصرارًا على أن يكون كبير أبو طيب.

لا يتردد في شراء الأرض، وبناء المزارع، ومضاعفة عدد بهائمه، حتى عند اختيار شيخ للبلد خلفًا للشيخ عبد السند، اختار العجوز الهادئ الحاج شاكر، لا يُريد لأي سلطة أو قوة أن تضاهي سلطته أو تتخطاها.

يومٌ واحدٌ في الأسبوع كان مسموحًا فيه لأكابر البلد وأعيانها أن يجالسوه ولا يقدم لهم غير أكواب الشاي، العدو يسكن شرق القناة، وخيبة الأمل تعشش في القلوب، ومأمون يتابع بجدية وتركيز ذهاب أبناء البلد للتجنيد.

نقصُ السلع والسكر وارتفاع سعرها لم يُحركا قلبه تجاه أحد، ولم تزد أجرة من يعمل بأرضه ومزارعه مليمًا واحدًا.. ورغم أنه لم يُعارض إقامة المولد في ميعاده السنوي، فإنه لم يُبد ترحيبًا، واكتفى بأن نبه على خفره متابعة كل شيء، وجر كل من يتجاوز لداره.

المولدُ يصنعُ بهجة كبيرة للصغار، ويسمحُ للكبار بالترويح عن نفوسهم، وسط كل ما يشعرون من حُزن وخيبة.

ابتلعت المحروسة لطفي، ولم يعد أحد حتى من أبناء عمومته يعرف عنه شيئًا، ولا حتى رفيقه زيدان، فقط تقبل ما حدث بحزن وأسف، واقتنع أن ما حدث عدلٌ وحقٌ.. لا يحملُ بقلبه كرهًا أو ضغينة تجاه العمدة الجديد، بل كان أول من هنأه وبارك له، وعرض عليه مساعدته وقتما شاء.

يملكُ زيدان من الأرض والطين والبهائم ومحبة الناس ما يجعله لا يهتم لفقدان والده الشيخ المُسن منصبًا رفيعًا كمنصب شيخ البلد، فقط انحصرت حياته في دوائر متكررة حول بيت صُبح طوال النهار.

الشاب قتله العشق، وأنهك الشوقُ فؤاده، وكيف لا يحدث؟، وقد أرسل لنسيم من يُخبرها بمحبته وعشقه لها.

مُنيرة ابنة أخيه، رفيقة نسيم في رحلتهما اليومية لشاطئ الترعة أخبرتها بذلك، وأنه ينتظر حتى تهدأ القلوب، ويخطب يدها من أمها.

الصبية تملك من الحياء ما ألجم لسانها، وجعلها تكتفي برشها بالماء، وهي خجلة مضطربة.

زيدان أوسمُ رجال أبو طيب ويُحبه الجميعُ..

تراه وهو يحوم ويدور حول دارهم، ويُمني قلبه بنظرة منها، العشق عدوى ينقلها سحرُ الغرام بين القلوب.

أصبحت تهبه ما يتمنى، وتتصنَّعُ الحُجج كي تظلَّ أطول فترة ممكنة أمام دارهم كي تتلاقى النظرات، وتهدأ الأشواق، وقت العصاري تجلسُ بجوار أمها تحت شجرة التوت، وتخفي ضحكة خجلها كلما مر بهما زيدان، وألقى التحية على أمها.

أول مرة ينبضُ قلبها، ويخفقُ بالحب والغرام، لم تُحدثه أو تسمع صوته، لكنها تشعر بعاطفةٍ نحوه منذ أن أخبرتها منيرة بحبه لها، وكأنها سكبت حبه في قلبها بالإفصاح عما يحمله قلبُه لها.

البسطاءُ كالأرض العفية ينبتُ فيها الزرعُ فور سقوط المطر.

الزغاريدُ تنتشل صُبح من شرودها، وهي ترى زفة كبيرة من النساء والأطفال تقتربُ من جنتها تحتَ شجرة التوت، وتلمح بينهم ولديها قنديل وبركة.

فعلها قنديل الحاذقُ النبيه، وكتب اسم أبو طيب بحروفٍ من نور بعد أن حصل على المركز الأول على كل المحافظة.

كم من المباهج مرت بتلك البُقعة تحت ظل الشجرة، لا تجدُ رائحة عمارة زوجها وحبيبها الراحل في بيتها، بعد أن ترك رفاعي البغيض رائحته فوق فراشها.

هنا فقط تشمُّ رائحة عمارة، وكم مِن المرات أسندت جسدَها إلى جذع شجرة التوت، وهمست لها كام تشتاق لزارعِها وغارس بذرتها، هي زوجة عمارة وشجرة التوت ابنته، زرعها وسقاها، ولم يغب عنها يومًا واحدًا.

الفرحة الجماعية تعودُ للبلد، والعمدة بنفسه رغم ما عُرف عنه من حرص وجدية، قرر الاحتفال بابن أبو طيب الذي رفع رأسها، وسط كل بلاد الناحية وأمر بذبح عجل؛ احتفالًا وإكرامًا للحاذق اليتيم.

الزمنُ يصالحُ صُبح بعد طول جفاء، وتصبح أم أول طبيب بالبلد، لم يعُد يناديها أحدٌ إلا بأم الدكتور.

الليلة التي أقامها العُمدة من أجل قنديل، جذبت كلَّ المعارف من المركز وكل البلاد والقرى، المأمور ورئيس الجمعية ومدير المستشفي الميري الذي حضر بصحبة نجله فايز صديق قنديل، فايز وقنديل في طريقهما لأن يُصبحا طبيبين بعد سنوات من المُذاكرة والاجتهاد.

ابنُ طبيب المركز سيُصبح طبيبًا، وابن عمارة الفلاح البسيط لن يفرق عنه في شيء.

فرحة نسيم غامرة، ولم تتوقف عن تقبيل قنديل، وإطلاق الزغاريد، هي وأبناء حسن وبركة.. فرحتها لم تسمح لها برؤية نظرات فايز لها، الجمال وحُسن الطلعة، قدر لا أحدَ يهربُ منه، الفتاة تخطفُ الأبصار بجمالها وخفة روحها، تجمدت لثوان وهي تُقدم الشربات لفايز، وهي تشعر ببطء حركته حتى يتمكن من تفحص جمالها عن قرب.. نظراته واضحة لا تقبل شكًا أو تأويلًا، حياتها بين دجاجات بيتهم وطيورهم وظل شجرة التوت وصوت خرير ماء الساقية لا تمنع عقلها النقي عن قراءة تلك النظرة التي رأتها من قبل بملامح زيدان.

فايز يرتدي بذلة ورباط عنق، بعكس زيدان يرتدي الجلباب والعباءة مفتوحة الأطراف، فقط نظر في عينيها، وارتجفت أهدابه، وجاهد حتى نطق:

- تسلم إيديك.

ظل بدارهم ثلاث ليال برفقة صديقه المُقرب ينعم بالجلوس تحت شجرة التوت، ويصيبه منها عدوى الغرام، تلك الشجرة لا تتوقفُ عن لعبة العشق والغرام، داعبت من قبل قلب عمارة وزيدان وحتى رفاعي، والآن تداعبُ قلب فايز وتهمسُ له وتحدثه عن جَمال نسيم وحُسنها اللذين يفوقان حُسن بنات المركز والمحروسة.

ثلاثة أيام لم تتذكر فيها نسيم طواف زيدان حول دارهم لتنتظره، وتهبه ابتسامة من ثغرها تُشفي قلبه المحموم بعشقها.

مُتابعة فايز وقمصانه البيضاء وياقته النظيفة وصناعة الفطير المشلتت له ولقنديل أنستها جولات زيدان حول دارهم.

لم تزر المركز من قبل، لكنها سمعت عنه الكثير من قنديل ومن بعض الفتيات وأيضًا من بركة، توجد هناك دكاكين كثيرة متنوعة، وباعة للمناديل المُزركشة والحُلي، والملابس الجديدة، زاهية الألوان.

نظراتُ فايز إليها لا تتوقفُ، ولا يتركُ فرصة مهما كانت ضئيلة دونَ أن يختلق معها أيَّ حوار، مهما قصر وقته وقلت كلماته.

جلست تحتَ شجرة التوت بجوار أمها على مقربة من قنديل وفايز، وأطرب سماعَها حُلو حديثه وكلامه المُنمق عن مستقبله، وكيف سيُعاون والده في عملِه، وقد عشق منه مهنة الطب ومُداواة المرضى.

وحيدٌ لا إخوة له، ويملكُ والده طبيب المركز القديم بيتًا كبيرًا يُشبه القصر، هكذا سمعت من قنديل، كما سمعت منه أن بنات المركز أغلبهن يرتدين الجونلة والقمصان الزاهية.

لم تعتد فعلَ شيء أكثر من قبول النظرات ذات المعنى، وبالكاد تتلقاها بابتسامة وهروب خجل من عينيها يزيد حُسنها فتنة وجمالًا.

الشوقُ يفتكُ بقلب زيدان، وقد مرت عدة أيام لم يلمح نسيم أمام دارهم، ولم يشاهدها غير مرة واحدة، وهي بجوار أمها عند الساقية، ولم تره أو تلحظ عبوره.

ورغم أنه كان على رأس المُهنئين الفرحين بنجاح قنديل وتفوقه، فإنه لم يستطع فعلَ ما هو أكثر من ذلك، عقله يكادُ ينفجرُ، وحصانه ذهبي اللون تململ، ومَلَّ من كثرة عدوه طوفًا في حواري وحقول أبو طيب.

لم يملك غير منيرة ليطلب منها السؤال عن نسيم، وسبب اختفائها وإخبارها أنه قرر خطبتها، واغتنام حالة الفرح والسعادة بدارهم، وكأنها قد نسيت تمامًا أمر زيدان، ظلت مُحدقة مقتضبة، وهي تسمعُ حديث منيرة، ولم تعرف بماذا تُجيب.

حُلم الحياة بالمركز وياقة فايز البيضاء النظيفة تمكن منها تَمَكُّن قلل الساقية من ماء البئر، ومَن منا يعرف للعشق سببًا أو للنسيان قانونًا؟.

قلبها أخضر بلون ورق شجرة التوت، كما تعلقت من قبل بزيدان، سرعان ما تعلقت بفايز وحلم الحياة بالمركز بجوار الدكاكين، وارتداء الجونلة والقميص.. نظراته لها خلقت بداخلها حُلمًا كبيرًا، وأمنية قد تتحقق، إن صدقت نظرات فايز لها.

راوغت منيرة قدر استطاعتها، وتهربت منها بحُجة أن الحداد على أخيها حسن لم ينته بعد، خصوصًا بعد زواج عواطف أرملته من صقر صاحب البقالة، وإصراره على ترك سعد ونورا ابني حسن في كنف جدتهما صُبح، وتَجدُد حُزن الجَدة على ابنها مرة أخرى.

النساءُ يفهمنَ بعضهِن بعضًا بسهولةٍ ويُسر.. منيرة من الفِطنة أن تشعر بأن هناك ما تخفيه نسيم عنها، وأن كل ما تقوله هين لا يستحق، ولا يقفُ عائقًا أمام زواجها بزينة شباب القرية، وابن شيخ البلد يومًا ما.

ريبتها انتقلت مُضاعفة لقلب وعقل زيدان، وذبلت عيناه حزنًا وخيبة، وهو يشعر بأن الفتاة تتهربُ منه، كما تهربت من قبل، ولم تعد تنتظره ليراها أمام دارهم.. قلبُ العاشق المكلوم يُصارع عقله وحكمته، ويتخلى عن هدوئه، ويقرر الحديثَ مع بركة بشأن زواجه من نسيم.

الفتاة صغيرة، لا تملك عقل حكيم يعرفُ مَصلحتها، هي بالتأكيد مُشوشة خائفة، لكنها عند الجد ستوافقُ وتصبح عروسته، وتسكن داره، وتربي دجاجاته وطيوره، وتصنع من فرن داره الخبز والفطير.

الفرحة تسكنُ قلب بركة، مَن في أبوطيب لا يُفرحه نسبُ شاب مثل زيدان؟، فقط أخبره بأن يترك له فرصة كى يعرضَ الأمرَ على أمه وقنديل، بعد عودتِه من المركز في المساء.

لقاء بركة أشعر زيدان براحة غائبة منذ أيام، لكن للانتظار لوعة لا يُطيق نارها مُشتاقٌ.

التفوا جميعًا حولَ الطعام في المساء، وقبل أن ينطقَ بركة ويُحدثهم عن خبر نسب زيدان، كان قنديل يُقبل رأس أمه فرحًا، وهو يخبرها بأن فايز ووالده طبيب المركز طلبا نسيم للزواج.

الفرحة والدهشة جعلتا نسيم تنهضُ مُسرعة مُحمَّلة بأطنان من السعادة والخجل، سعادة لا تقلُّ أبدًا عن سعادة صُبح التي عوَّضها الله بعد كل ما عانت طوال حياتها بنسب طبيب المركز.

ابنة رفاعي، والكلُّ يعلم مَن هو رفاعي، تصبح زوجة ابن طبيب المستشفى الميري، كم للقدر من مُفارقات لا يتخيل حدوثها عقولُ البشر.

طبيبُ المركز رغم بذلته وياقته البيضاء، فإنَّ بداخله قلب فلاح من نبت الشجر والسواقي، يرغبُ في زواج ابنه الوحيد مبكرًا حتى يرى أحفاده وينعم بملاعبتهم، ويأنس بهم في بيته الضخم القابع بشموخ، بين بيوت المركز، ذات الطوب الحجري والطوب المطبوخ.

الدهشة تتمكنُ من بركة الذي لم يتفوه بحرف، مما أثار دهشة قنديل، وجعلته يسأله بحيرةٍ عن سبب صمته، ليقص عليهم متعجبًا رغبة زيدان هو الآخر في الزواج من نسيم.

عريسان في يوم واحد أمرٌ يستحقُّ الدهشة والاستغراب، لكن مَن مِن ثلاثتهم صُبح وبركة وقنديل يمكنه ترجيح كفة زيدان عن كفة ابن طبيب المركز؟، لو أن زيدان فعلها قبل ذلك لطاروا من الفرحة، ورحبوا به وبنسَبه، أما الآن وأمام نسب الطبيب، فلا وزنَ له ولا ثِقل.

نسيم خلف دَرفة حجرتها، تسمعُ حديثهم، ويخفق قلبُها بين سعادة لقرب حدوث حلمها، وبين خوفِها من أن يضيع الحُلم بالموافقة على زيدان.. لكن صُبح حَسمت الأمر بصرامةٍ قاطعةٍ، وهي تُخبرُ قنديل بأن يعطي لطبيب المركز موعدًا في أقرب وقت مُمكن لزيارتهم، وقراءة فاتحة نسيم على فايز مع رجال العائلة.

حِقدها وكُرهها القديم للقب شيخ البلد ما زال يسكنُ فؤادها، السرعة في إتمام الأمر ضروري حتى لا يتحدث زيدان عما يسيئهم في أبو طيب، وأنهم وافقوا على غريب ورفضوه.

في الصباح كانت تضعُ طرحتها السوداء فوق رأسِها، وتتجه لبيتِ مأمون العمدة، يجبُ أن تسد الطريقَ أمام زيدان، وأن تضمنَ حصانة كافية لزواج نسيم من فايز.

أرضت غروره، وهي تصفه بكبير البلد وراعي أبنائها.

اجتماعُ النساء والفتيات على شاطئ الترعة كل صباح، هو ما مَهد نقل الأخبار والأحداث، الألسنة تتلاحقُ وتتسابقُ في سرد الخاص والعام، الناس في أبو طيب يعرفونَ كلَّ صباح مَن نام ومَن ظل مستيقظًا، ومَن تجشأ ومن تثاءب وكم مرة فعلها.

فعلت نسيم ما أوصتها به صُبح، وأكدته وأعادته على مسامعِها أكثر من مرة، وأخبرت رفيقاتها بأن فايز ابن طبيب المركز خطبَها، وحدَها مُنيرة ظلت صامتة، وهي تحدِّق في نسيم بكراهية تَولدت فقط في لحظتها، داعبها الفتيات وأطلقت أكثر من واحدة منهن زغرودة، بينما ظلت منيرة على هيئتِها نفسِها، ونسيم تشعرُ بها وتتوتر وتضطربُ وتتحاشى النظر إليها.

كيد النساء تمكَّن من منيرة، ورَفعت طشتها فوق رأسها، ومرت بجوار نسيم حد التلاصق، وقالت لها وهي تضغط على الحروف وتجز على أسنانها:

- مبروك يا ابنة رفاعي.

تجاهلت نسيم جُملتها الوقحة القبيحة وما خلفها، لن يهم بعد الآن مَن هو أبوها؟، في البندر لن يسألها أحدٌ عنه، ولا عما كان يفعل في حياته، لن

يهتم أحدٌ بشيء غير أنها زوجة الطبيب، ابن طبيب البندر، ومدير المستشفى الميري.

وُلدت بعد رحيلِه، ولم تعرف عنه شيئًا غير قصص وحكايات تتحدث كلها عن أنه كان رجلًا يكرهه الجميع، وعاش بينهم بالشر والعداء فقط.

حتى أمها صُبح، لم تجد عندها ما يجعلها تحب أباها المجهول لها، كلما سألتها عنه، كانت تضمها إلى صدرها، وتخبرها بأنه كان مُتشوقًا لإنجابها وعاشَ طوالَ حياته يرجو رؤيتها.

كراهية صُبح لرفاعي لم تجعلها تخبر ابنتها بما يجرح قلبها، ويُحمله بالهَمِّ والعار.

جلست منيرة بجوار زيدان تُثرثر، وتكيلُ الشتائم لنسيم، وهي تنقلُ له الخبر، لم يتفوَّه، ولم يفعل أكثرَ من الصمت التام، حتى إنه لم يعِ كلام ابنة أخيه، ولم يلتقط عقله منه شيئًا أكثر من خبر خِطبة نسيم لابن طبيب المركز.. ليس بيده شيءٌ يفعله أكثر من عتاب بركة، لكن: ماذا يفيد العتاب وقد فقد نسيمَ ولن يَرى ابتسامة ثغرها مرة أخرى؟

الشابُ له قلبٌ أبيضٌ لا يحملُ ضغينة، ولا يعرفُ للكراهية والعداوة طريقًا، حملَ حزنه بقلبه، وانطلق بالكاريتة بلا اتجاه، فقط أرخى اللجام

لحصانه وتركه يتحركُ كيفما يشاء، يلومُ نفسَه على تأخره وتمسكه بالأصول، لو أنه فعلها من شهور لكانت نسيم من نصيبه بدلًا من ابن طبيب المركز.

ندمُ أنك لم تفعل، أشدُّ من ندم أنك فعلت.

رغم كل ما يحمله قلبُه من طيبة ورحمة، فإنه دائمًا لا يفعل شيئًا، تحدث الأمور أمامه ويقف صامدًا باهتًا كأنَّ كل شيءٍ حوله لا ناقة له به ولا جمل.

شاهدَ بعينيه صديقه ورفيقه، وهو يبالغُ في السقوط، ويستبدلُ بغوازي الموالد عوالم شارع محمد علي وعماد الدين، ولم يفعل شيئًا غير الصمت ومضاعفة اعتنائه بحال البلد.

دائمُ الشرود والتخيل، يحلمُ بالأشياء ويتخيل حدوثها فيهدأ قلبُه، كأنها حدثت بالفعل.

ابتسامة واحدة من ثغر نسيم جعلته يصمت ويَرضى لأكثر من عام، كلماتُ منيرة تدق عقله وهي تجيبه عن سؤاله الوحيد: هل بَدت عليها الفرحة؟ لتجيبه بأن بهجة نسيم وغبطتها يراهما الأعمى، ثم سيل من الشتائم وقفت جميعها على باب أذنه ولم تعبره.

فضّلت عليه ابنَ طبيب المركز وساكن البندر، فقد شغفه وحبيبته، لكن تبقى له شرودُه وجولاته حول البلد.

لا يهتم بما يحدث حوله في أبو طيب، العمدة الجديد شديدُ الصرامة، شديد الحب لجمع المال، أهل البلد يترحمونَ على أيام عبد الرازق وحتى لطفي.

مأمون لا يترك أحدًا ممن يعملون بأرضه يرتاح ولو دقيقة، يعطيهم أقل القليل، ويطالبهم بأكثر مما يستطيعون.

كلما سمع عن مُتعثر أحضره لداره، ولا يتركه إلا وقد اشترى أرضه أو بهائمه، أصبح يملك وحده حظيرة كبيرة، على نصف فدان.

أصواتُ بهائمه تسمعها على بُعد مئة متر، لم ينقصه غير بيت كبير من الطوب المطبوخ الأحمر، بيت من طابقين، وليس طابقًا واحدًا مثل باقي بيوت البلد.

لم يقبل أن يسبقه أحدٌ في ذلك، أحضر البناءين من البندر، وبسببه عرفت البلد العربات الكارو، وأصبحت مهنة لأكثر من شخص.

الجِمال وحدَها لن تفي بالغرض، والعُمدة متحمس متعجل يريد سرعة البناء، لا شيء يبقى على حالِه حتى النهاية.

غادر قنديل لمصر، هكذا يسمون القاهرة، وكأن أبو طيب من عالم آخر، سكن بسكن الطلبة، بينما استأجر فايز شقة مُنمقة لتكون سكنَه مع عروسته.

كانت ليلة عرسهما مشهودة، لن ينساها أهلُ البلد بسهولة، خمسة عجول أطعمت الجميع، وشدا المغنون في أبو طيب وفي فناء بيت طبيب المركز.

بُح صوت صُبح من كثرة زغاريدها، وهي تزف ابنتها للعريس مرتدي البذلة ورباط العنق، لم تدعها تتزوج من زيدان، ويحملها خلفه على حصانه بجلبابه وعمامته.

الأقدارُ بأبو طيب كرياح الصيف، لا أحدَ يعرف متى تأتي ولا متى تنتهي،

عاد لطفي للبلد مرة أخرى، لكنه عاد هذه المرة داخل نعش سلمه المستشفى الميري، وحوله عساكر يحملون البنادق.

أعماه السُكر، ونشبت بينه وبين أحد البلطجية مشاجرة انتهت بسقوطِه غارقًا في دمه.. لم يتحمل أن يُمسكه بلطجي الكباريه من ملابسِه ليقذفه خارجه بعد أن أفلس وفرغت حافظة نقوده، تشاجرا وكانت الهزيمة وضربات الزجاجات الفارغة من نصيبه لتُنهي حياته، أحب حياة

الغوازي والعوالم، ولم يتركها إلا بموته.. كَم من أبناء أبو طيب عادوها بداخل النعوش!.

بكى زيدان خليله، كما لم يبكِ من قبل، كأنه كان ينتظر ما يجعله يلفظ ما بروحه من شجن وألم، ويبكي بحُرقة كطفل صغير ضاعت منه أُمه وسط الزحام.

ترك لطفي زوجة وأولادًا لم يعد لهم من الدنيا غير ما يمُنُّ به عليهم أعمامُهم المشغولون بحياتهم، زيدان لا ولدَ له، ولا أسرة يعيلها، لم يقبل حديث بدر أرملة رفيقه عن عدم نيتها تسجيل أبنائها في المدرسة، دخولُ الأطفال المدرسة أصبح معتادًا ودليل عز ووجاهة.

فقط الفقراءُ وعمال الترحيلة مَن لا يقدرون عليه، ولا يقبلون أن يفقدوا ما يحصل عليه أبناؤهم من العمل بجوارهم في الحقول في مواسم جني المحاصيل، أو ملاحقة الدودة.

بدر تكبره بخمسة أو ستة أعوام، ورغم شدة رقتها وجمالها، لم ينظر لها يومًا نظرة متفحصة متأملة.. حتى وهو يصيح بها أن تطيعه، وتقبل منه ما يتيح لها إلحاق الصغار بالمدرسة ورعايتهم على أكمل وجه، لم يجذبه جَمالها وشقرة حواجبها، وحمرة شفتيها.

الحزنُ على رفيقه أكبر من أن يرى قلبه الجَمال ويشعر به، لا يفوت يومًا دون زيارة للبيت، والاطمئنان أن كل شيء على ما يُرام.

بدر غريبة لا قريب لها في البلد، ولا أحد يعتني بأمورها، وأمور أولادها مثل زيدان الوفي لصديقه، لكنه قانون أبو طيب الذي لا يتغير مهما جرت السنون، ومهما تغيرت الوجوه والأسماء.

كلما نبت زرع الخير نبتَ حوله زرع الشياطين، انتشر الهمسُ في البلد من شرقِها لغربها، ومَن في أبو طيب لا يراقب ويتابع أجمل من فوق أرضها من نساء.. انطلقت الشائعاتُ كفأر هارب من حريق، زيدان على عَلاقة ببدر، أرملة صديقه، عار ما بعده عار.. جريمتان في وقتٍ واحدٍ، مصاحبة أرملة وخيانة صديق.

وجدَ زيدان نفسَه في يوم وليلة متهمًا بالخيانة، ولم يعرف كيف يتصرف وكيف يُوقف ألسنة الناس، وذهب كلُّ دفاعه وعظيم قسمه لكل من تحدث معهم هباءً، وكأن عقول أهل البلد ترفض أن تنتهي القصة بنهاية سعيدة، ببراءة بدر وزيدان، وتصبح مجرد قصة تُحكى للصغار.

الحلقة تضيق على بدر، ونظراتُ النساء لها أسوأ من نظراتهن لغوازى المولد، وزيدان يعاني الأسوأ، وقد حذره أحدهم أن دسوقي أخو لطفي الأصغر أخبره أنه سيغسل عارهم، ويقتل زيدان خائن العيش والملح.

مأمون العمدة يستدعي زيدان، ولم يتركه هو وشاكر شيخ البلد ومعهما الشيخ محفوظ إمام المسجد إلا بعد أن وعدهم وعدًا قاطعًا بأنه سيتزوج من بدر.

في الليلة نفسها، كتب كتابه عليها، وهو لا يُصدِّقُ أنه يمر بكل ذلك، لكن الأزمة أكبر من أن يتأخر دقيقة، ويفتح الباب للشر على مصراعيه.

أقاربه يُريدون مُعاداة الجميع، ونفي التهمة عن ابنهم، وأبناء عائلة سلامة أخذتهم الحمية، ويريدون الثأر وغسل العار.

لم يُكلف شخصٌ واحدٌ من أهل البلد نفسَه عناء التأكد من وقوع جريمتي الزنا والخيانة، لم يسأل أحدٌ من الأساس زيدان إن كان ما يدور على الألسنة صحيحًا أم لا، بغرض التحقق، فقط الكل كان يبحثُ عن متعة سماع الأسرار.

مصائبُ الشرف لا تناقش، ولا يُبحث فيها- كالقضاء والقدر- عندما تسقط على رأس أحد، تُهشم رأسَه، ولا تترك له فرصة حتى في الصراخ وقولة آه.

زينة شباب البلد وأطيبهم قلبًا يتزوجُ بدوار العمدة المبني من الطوب المطبوخ، وله سقفٌ من الألواح المتساوية المُتراصة بدقةٍ وعنايةٍ وحرفيةٍ، لا زفاف ولا مُغنين ولا مأدبة عشاء وذبائح.

بدر ليلة زفافها تجلس بدارها مكومة باكية، لطخ الكحل وجنتيها أضعاف ما تفعله فتيلة اللمبة الجاز بفوهتها، وهو في داره يعاني من شجار إخوته وأبناء عمومته، حول تسرُّعه وجُبنه في عَقد القران، وعدم الوقوف بوجه أبناء سلامة وقطع ألسنة كل من يتكلم عنهم.

فقط مرت كليلةِ زفاف، لكنها لم تصبح كما جرت العادة ليلة دخلة يتغزل فيها العريس بعروسته ويتذوق جمالها.

ليلة بعد ليلة، وزيدان مُكتئب مُتجهم، لا يخرج من داره، وإخوته يرتفع صراخهم به أن يخرج، ويكُف عن الانزواء كالنساء.

عزلته سببها بُؤسُه وحُزنه من شر أهل أبو طيب الذي لم يتخيله أبدًا بهذا القدر، لكنها الدنيا، لا بد لها أن تستمر وتحياها النفوس طالما ما زالت لها قلوبٌ نابضة.

الشيخ شاكر صاحبُ القلب الطيب يزوره ويُحدثه كأب مُخلص صادق، ويطلب منه جلب بدر وأولادها لداره.. فلا يصح أن تظل بدارها، وهي زوجته.

مَشت خلفه تحمل بُقجة ملابسها، وملابس أولادها، وسكنوا دارهم الجديدة،

المرة الأولى لهما خلف باب مغلق، أشعل اللمبة الجاز وأشعل من حرارة زجاجها الساخن سيجارته، وجلس لا يعرف ماذا يقول أو يفعل.

بدر الآن زوجته بقرار من كل أهل أبو طيب، تَخلى عن تحفظه وتأملها بدقة للمرة الأولى.

ورغم كل شيء، فإنها بارعة الحُسن والجَمال، خلعت طرحتها وتراقص شعرها الذهبي اللامع حول عنقها الأبيض ليزيد حُسنها وضوحًا وفتنة.

لا يمحو الحُزن الجَمال، لأول مرة يقارنها بنسيم، الفارق بينهما كبير، بدر امرأة مُكتملة الأنوثة، بعكس نسيم الفتاة خفيفة الروح والانفعال، عقله ما زال مختنقًا مكتئبًا يعاني من الغضب والضيق.

لكن ماذا تبقى، لم يتبق بعد زواجهما غير قصة بلا محتوى، عن أنه أحبَّ أرملة صديقِه وتزوجها.

نظراته ثابتة نحوها، وهي جالسة بلا حِراك، والغمُ والخجلُ مُسيطران عليها، رقته وطيبة قلبه جعلتاه ينهضُ ويقترب منها، ليربت عليها، ويُطيب خاطرها، فهو أكثر شخص يعرفُ بماذا تشعر من حُزن وقهر وخجل.

شمَّ رائحتها فور اقترابه، ابتسمت شفتاه، وابتهج عقله بعد طول اختناق، نظرت له بحزن وخجل، أوقعته في ورطة لم يكن يليق به أن يقع فيها، فقط بسبب رحمته وطيبته، ووفائه لذكرى رفيقه.

حدّق في خضار عينيها، سقط فيهما دفعة واحدة، لا يفعل السَطل والسُكر ما فعلته به عيناها، وكأنه يُحلق في فراغ الحُجرة.

انطلقت روحه ورفرف فؤاده وضمها إليه، بَكَت بين ذراعيه واختلط بفمه مذاق رحيق فمها بملوحة دموعها، وزاد من ضمه إليها حتى اندمج الجسدان وتراقص ظلهما على جدار حجرته.

5

شرفة نسيم

في الجنة يفوقُ الواقع رومانسية الخيال.

هكذا وقع السكنُ الجديدُ بقلب نسيم، كلُّ الصور المرسومة برأسِها عن مصر- القاهرة- لم تكن تصل أبدًا لما رأته بعينيها، بعد أن ارتدت الجونلة والقميص كما تمنت.

جُنيهات طبيب المركز المتدفقة بلا توقف على فايز أتاحت لهما السكنَ ببناية في حي المنيل، شاهقة الارتفاع من سبعة طوابق، حظيا فيها بشقة في الطابق الخامس..

من شرفة شقتهما تجلسُ مبهورة أمام منظر النيل واتساعه، ومراكبه الضخمة ذات الأشرعة المرتفعة.. بَحرُ مصر أكبرُ بكثير من ترعة أبو طيب، بحرُ مصر بلا جنية، فقط ترى المراكب تغدو طوال اليوم، وتلك البنايات الخشبية المفترشة حوافه تتمايل فوق مائِه، ويرتسم نورها بألوان متعددة طوال الليل.

ما زالت صغيرة لم تثقلها تجارب الدنيا، ومفاجآت الحياة، لكنها منذ أن ارتدت ملابس بنات مصر العصرية، وهي تبدو أكبرَ من عمرها..

هدوءُها ورقة ملامِحِها زَادَاها نضجًا لا يَخفي عن العيون، تجلس أغلبَ وقتها في شرفتها، تنظر لتلك اللوحة العريضة أمامها بافتتان وإعجاب لا يقلان أو يفتران.

الحياة الجديدة لا تتشابه مع الحياة بأبو طيب إلا في تشابه الأسماء، لبن مَاكينة الفرز بدارهم يأتيها كل صباح في إناء، دون أي مجهود، ودون سيدات يحملن أواني معدنية فوق رءوسهن..

البحر هو البحر، لكنه هنا يُسمى النيل، ولا ترى على شاطئه رفيقاتها يغسلنَ أوانيهن وملابسهن بسيقان عارية..

ظِلُّ شجرة التوت تبدَّل بمظلةٍ عريضةٍ من القماش السميك فوق شرفتها، وبدلًا من صوت خرير الماء المنساب من قلل الساقية، تنسابُ الموسيقى والأغنيات من الراديو الموضوع فوق المنضدة بجوارها.

بفضل ما فعله معها قنديل وجلوسها بجواره بعد عَودته من المدرسة، تجلس كلَّ صباح تقرأ الصحف والمجلات، وتُبدي رأيها في موديلات الفساتين والقبعات..

عالمُها الجديد في شرفتها لا يخلو لحظة من السِّحر والإبهار.. بفضل جنيهات طبيب المركز العديدة نست أنها ابنة صُبح الفلاحة الكادحة، وابنة رفاعي المُجرم، المصحوب ذكره دائمًا بالسَّب واللعنات.

أصبح يُطربها سماعُ من حولها يُلقبونها بالست هانم، ولِمَ لا؟ وهي مُحاطة بمَن يخدمها، ويقومُ عنها بكل الأمور، ويعرفونَ أنها زوجة الشاب الهادئ المُهذب، دارس الطب.

تضحكُ بينها وبين نفسِها كلما أطلت برأسِها من شرفتها، وتلمح فتيات المنيل بالجونلات القصيرة المرتفعة حتى مُنتصف أفخاذهن.. تضحكُ وهي تتذكر توبيخ الست سعدات لرفيقاتها على شاطئ الترعة، عندما ترتفع جلاليبهن فوق رُكبهن، وتصيح فيهن بغضب: دَاري لحمك يا حلوة مِنك ليها.

بلا شك، لو أن الخالة سعدات شاهدت ملابس البنات هنا، وهي تتوقف وتنتهي بعد مؤخراتهن بسنتيمترات، ستُصاب بلوثة وجنون وترافق رزق بعدها في جولاته حول شاطئ الترعة، تحمل معه كيسًا كبيرًا مملوءًا بالقمامة.. فقط أرادت ملابس أهل مصر من جونلة وقمصان وبلوزات، لكنها أبدًا لا يُمكنها ارتداء ملابس قصيرة عارية، يكفيها فقط الجلوسُ في شرفتها، والمقارنة بين سيقان بنات المنيل، وسيقان الفتيات على شاطئ الترعة.

السعادة الممنوحة لها من مشاعر فايز ورقته تجعل أيامها كلحن موسيقيّ رومانسيّ حالم، تعد له طعامَه وتجلسُ خلفه برضا، وهو يُذاكر وتهرول مُلبية فور شعورها بحاجته لأي شيء.

حُبها له بعد زواجهما أضعاف ما حمله قلبُها له قبله، لا ينقصها شيء في عالمها الجديد غير رؤية أمها.

الحنينُ لها ولبركة وصغاره، وصغار حسن يعتصر قلبها بالاشتياق كل يوم، لم تعتد من قبل الابتعاد عنهم أو فراقهم، لكنه ثمنٌ يليق بجنتها بموسيقاها وعِطرها وكل تفاصيلها.

الجنة التي نخلقها بأيدينا تُصنع لإرضائنا نحن، وليس غيرنا.. جنة بدر جزاءٌ مُستحقٌ لزيدان على طيبة قلبه، ونُبل مشاعره، الجلوسُ أمامها يُنسيه الدنيا بما فيها.

طالما ضحكت بخجل من نظراته، وودّت لو فتحت رأسَه، وعرفت ما فيه، نظراته لها تُربكها، وتزيد حَيرتها.. دائمُ التطلع لها بعينين مفتوحتين، ولا يُجيب أبدًا عن أيّ سؤال، صمته يُحير عقلها، وتشك كثيرًا أنه نادمٌ أو مستاءٌ من زواجهما، لم يطلب يدَها أو يُخبرها بحبه.

زواجهما حدثَ بحكم القضاء والقدر ومنع المصائب، لكنه كلما خرقَ صمته وتحدث أخبرها بما يُطمئن قلبها، ويُسعد روحَها.. فقط يُخبرها كلّ مرة بالشيء نفسِه، أنه لا يصدق أنها أمامه، وأنها زوجته، في كلِّ صباح يستيقظ كمَن عانى طوال الليل من الكوابيس، يتلفت حوله بتوتر، ثم يضمها إليه، ويُقبلها باشتياق، ويتفحص ملامحها، بعينين مفتوحتين مبهورتين.

جَمالها بالنسبة له كماء البحر المالح، كلما شرب منه ازداد ظمؤه، وأراد المزيد، تظنه يتذكر أنها كانت زوجة لغيره قبله لسنوات، ولا تعلم أنه لا يتذكر ذلك، ولا يجول له بخاطر.

ورغم أبناء لطفي الساكنين بداره، فإنه منذ اللحظة الأولى لا يشعر بأنها كانت يومًا لغيره من قبل، هي حبيبته وزوجته من قبل أن يُولد، تكبره ببضع سنوات، ومع ذلك يشعر بأنها طفلته الصغيرة، ولا يفعلُ شيئًا غير تدليلها ومُداعبتها، ومُلاحقتها في كل مكان بالدار..

يجلسُ بجوارها يتأملها بصمت مهيب وإجلال لا يقلان أو ينقطعان، لا يفوت بضعة أيام دون أن يعدو بالكَاريتة وحصانه إلى البندر، ويشتري لها ما يُبهجها ويُدخل السرور على قلبها، حتى أبنائها، يحملُ لهم حبًا صادقًا، ويجزلُ عليهم من محبتِه واهتمامه وعطائِه.

لا عجب أن تتبدل الحكاية على ألسنة أهل أبو طيب، أهل أبو طيب يتقبلونَ كل نقائض الحواديت، ما دامت تُعجبهم وتُرضي رغباتهم، كما تُعجبهم قصص السندباد ومُغامراته، فينسون أنه سارق كنوز، أصبحوا لا يذكرون بدر وزيدان، إلا بأوصاف العِشاق وحكايات ألف ليلة وليلة.. حورية البندر ذات العينين الملونتين تجلسُ بجوار الشاب الطيب الوسيم فوق الكَاريتة، ولا ينقص منظرهما غير أن يغني لها زيدان كمغنواتية المولد.

لكل منا جنته، ولا يخرج من الجنة غير الطماع عديم العقل، الساقية جنة صُبح، تجلسُ فيها تراعي سعد ونورا، ابني حسن، وهنية وابتهاج، بنتي بركة بحُب وسعادة.

أُم الدكتور كما يُناديها أهل البلد، ومع ذلك لم تتوقف عن عملها بعد الفجر في فرز اللبن، فلولا عملها وجدية حياتها لما استطاعت رعاية أبنائها، والحصول على هذا اللقب.

لا يُنغص عليها حياتها غير تلك الانقباضات قبل كل حيض، ما زالت تحيضُ وما زال جسدها يؤلمها، وتتململ في فِراشِها يتساقطُ العرقُ من جبينها، وتظل تتلوى وترفسُ حتى ينتفض جسدُها، وتهدأ رغم كل مشاعر الضيق والغضب.

ما زال جسدُها مُفعمًا بالأنوثة، رغم الشعيرات القصيرة بوجهها، القانون معروفٌ للجميع، الأرملة لا تزيل شعر وجهها، ولا تهذب حواجبها، وإلا تُصبح ساقطة في نظر الجميع.

جُوع الروح مُؤلمٌ ومُفسد للحياة، مُفتقدة لجلسة عمارة تحت شجرة التوت، وحديثه الطيب المُفعم بالرحمة والحنان، وجوعُ الجسد مُزعجٌ يخلقُ الغضب والانفعال، تتذكر رفاعي، وهو يجذبها من ذِراعها دونَ كلام ويجرها خلفه للدار، ويُغلق الباب بعنف، وينزعُ عنها جلبابها، ولا يتركها إلا قطعة لحم عارية.

يظلُّ يطوفُ ويدور حولها كأنه تاجرٌ خبيرٌ يفحصُ بهيمة قبل شرائها من السوق، لم تحمل له ذرة حُب واحدة، ومع ذلك ينفعل قلبُها وتتمكنُ الشهوة من جسدها، وهي تذكر تلك اللحظات، يرتجفُ جسدها وتدفن رأسها في وسادتها، ولا يحدث شيء غير هجوم أكبر، وأشد ضراوة لصور أكثر وضوحًا.

لمساته لجسدِها، وقسوة قبضته، وهو يعتصرُ لحمَها، لم يفعلها عمارة، ولو مرة واحدة طوال حياتها، بوضح النهار، كان دائمًا يفعل ذلك في ظلمة الليل وبعد أن يُطفئ اللمبة الجاز.

أما رفاعي فكان يُحب رؤية جسدِها بالنهار وانعكاس الشمس عليه، كانت تقف أمامه مُرتعدة غاضبة غارقة في بئر سحيقة من الخجل، لكنه بأفعالِه كان يجعلُ جسدَها يُصاب بتلك الرجفة التي لا تنساها، ويخلق انقباضات رحمها المُتلاحقة.

كلُّ محاولاتها للهروب من نظراته كانت تنتهي بالتحديق بملء عَينيها في ملامح الشهوة والرغبة بعينيه.

أصبحت جدة، ومع ذلك ما زال حيضها مستمرًا، ورحمها يئنُ، ويبللُ ملابسها، ولا يهدأ جسدُها حتى تذهب وقت الظهيرة والقيلولة لدار رفاعي المهجورة الخالية من السكان، وتتخلى عن عقلها بعد أن تغلق الباب، وتنزوي في آخر حُجرة، وتتجرد من ملابسها كما كان يُحب رفاعي

أن يفعل، وتستعيض عن غيابه بباذنجانة، وتظل تنتفض وهي تبكي حالها وتصرُفها، حتى تنتهي وتخفت الرجفة.

طالما همست للشيخ شفيق، وهي تقف حزينة بجوار المقام تتوسل إليه أن يهبها الهدوء، وتدعو ليل نهار أن ينقطع طمثها، ويصمت نداءُ جسدِها، هكذا تعرف وتسمع من نساء البلد، عندما ينتهي الطمث تنتهي الرغبة، ويهدأ الجسد ويستكين.

للمرة الثانية تحمل زوجة بركة، ولا يكتملُ الحمل، بعد البنتين لم تصل للنهاية مرة أخرى، وتأتي بالمولود.

لم يعد لبركة قراريط يزرعها بعد أن باع لطفي أرضه للعُمدة الجديد، وانتهى الإيجار.

أصبح فقط يتكسبُ من رعاية الساقية والعمل باليومية بأرض مأمون، نصحه الكثيرون أن يتزوج بأخرى، ولكن أين له بذلك؟، الزواجُ من ثانية وثالثة لا يقدر عليه غير المُقتدر صاحب الطين والبهائم.

قيراطا عمارة وخمسة قراريط حسن وماكينة فرز اللبن بالكاد تكفي تربية يَتيمَي حسن، وتكاليف تعليم قنديل، العُمدة لا يتوقف عن البحث عن المزيد من الثروة والمال، بعد الأرض ورءوس المواشي بنى طاحونة كبيرة لطحن الحبوب.

وحدَه في البلد يملكُ مزرعة كبيرة للمواشي، وطاحونة وجرارًا زراعيًا ودارًا من طابقين بالطوب المطبوخ.

الصراخُ يعلو في كل شبر من البلد، مات جَمال.. لا أحد يُصدِّق أن الرجلَ مات، كيف يموت هكذا فجأة دون تمهيد؟، هل يموت الزعماء؟! كيفَ يموتُ ولم يُعِد الأرض بعد، ويُلقن العدو درسًا لا ينساه؟

الكلُّ يبكي بحُرقة وينتحب، والعُمدة يأمر بعمل جنازة رمزية مهيبة للرجل بأبو طيب، نعش وعويل، والكل في حالة صدمة ويأس لم يتجاوزها غني أو فقير.

وحدَه عزب مَجذوب أبو طيب ظَلَّ يصيحُ بعلو صوتِه:

- الله حيّ.. الله حيّ.

مَدد يا صاحب المَدد والإحسان.

صوته جهوري مرتفع، بفضل جسده الضخم العريض، لولا خفة عقله لأصبح من المُهمين أصحاب الكلمة بالبلد.

لم يختلف الأمر كثيرًا في المنيل، اكتظت الشوارع بالبشر والصراخ والملابس السوداء، شارك قنديل وفايز في الجنازة والسير بحسرة خلف نعش الزعيم الراحل.. للرجل مكانة كبيرةٌ بقلب قنديل، يُحبه بكل كيانه،

ودائمًا يقول إنه لولا الرجل لما كانت بأبو طيب مدرسة، وما كان وصل لُمدرج كلية الطب.

بكى بحُرقة، وجلسَ بجوار فايز يتحدث كأنه يُحدِّثُ نفسَه ويخبره بلوعة:

- اليوم مات أبي عمارة من جديد.

فايز ابنُ طبيب المركز لا يحمل للرجل ما يحمله رفيقه، تحاشى طوال الوقت الخوض معه، رغم صداقتهما، في أي حديث عن تلك الأمور.

لا يرى للرجل حسنة تستدعي البكاء والحزن، بعكس قنديل، كما يرى أن النتائج كلها كانت بلا عائد أو فائدة، وأن النيات الحسنة وحدها لا تصنع الأوطان، على أي حال لا يُشغله غير إنهاء دراسته، والعَودة للبندر، وعيادة أبيه.

بطنُ نسيم منتفخ، والوريثُ على وشك الوصول، تحدث معها وأخبرها بأن والده لن يُطيق أن يعيش بعيدًا عن حفيده، وهو يعد الأيام والساعات كي يخرج للحياة، ويراه ويحمله بين ذِراعيه.

على نسيم العَودة للبندر، والحياة ببيت العائلة كي ينعم الجد برؤية ورعاية الحفيد.. تركُ الشرفة أصعب عليها من ترك الساقية وشجرة التوت من قبل، ذلك العالمُ الذي عاشت فيه وبه لأكثر من عام، فراقه أصعب عليها من أي شيء آخر.

احتساءُ كوب الشاي وسماع الراديو ومتابعة المارة بالكورنيش ومتابعة جلسات العشاق، كلها أمور اعتادتها وأحبتها وسكنت روحَها.

حتى عندما كانت تعود للبلد لزيارة أمها، كانت تحِن، وتشتاقُ للعودة للشرفة مرة أخرى.

بيتُ طبيب المركز به كل شيء، راديو وتلفاز وصحف تأتي في الصباح، ومَن يقوم بالأعمال ويجلب الطلبات، لكنه بلا شرفة تطل على النيل، وتمر من أمامها المراكبُ ذاتُ الأشرع العالية، والفتيات أصحاب الجونلات القصيرة، لكنها الدنيا.. تختبرنا دائمًا فيما نحب ومدى تحمل فقدانه.

الموالدُ لا توقفها الأحزان، سمح العمدة بإقامة المولد في موعده وفي مكانه نفسه، لا يريدُ إزعاجًا من مجاذيب ودراويش البلاد المحيطة، زيارة المقام كل جمعة وزيارة المولد في كل عام أصبحتا من الأمور المحسومة، أصيلة الحدوث بالبلد.

فقط زاد المولد تلك الخيام التي يقف أمامها رجال بشوارب سميكة، وأجساد ضخمة وعضلات مفتولة يتفحصون وجوه المقتربين منهم بعناية قبل أن يسمحوا لأحدهم بالدخول.. لا بد من مُزكٍ ومُوصٍ حتى يعبر الراغبُ ويدلف للخيمة المظلمة، ويحظى بدقائق بصحبة إحدى

ساقطات الموالد الجدد اللاتي لا يخرجن منها، ولا يرتدين ملابس الغوازي.

صوتُ حلقات الذكر والزار مرتفعٌ، والأجساد متراصة تتمايل يمينًا ويسارًا بتناسق ويهتفون من أعماقهم:

- الله حي.. الله حي.

الأصواتُ خارج الخيام متداخلة صاخبة، صوت حلقة الذكر مع صوت الزمامير مع صوت الربابة مع صوت المغنواتية وصراخ وتهليل الصغار، كل مَن يزور المولد يجد بغيته، مَن يبحث عن الحمص والطراطير، ومن يبحث عن استعراض القوة والزهو بالعضلات، ومَن يبحث عن رقص الغوازي، أو شهوة سريعة مع نساء الخيام، لا أحد يعودُ من ليلة المولد خالي الوفاض، حتى العمدة أوصى خفره أن يأخذوا من كل صاحب فرشة إتاوة عن كل ليلة يُمارس فيها نشاطه بأرض البلد.

زيدان مِمّن يُحبون ألعاب الحديد، وإظهار قوته ومنافسة أصدقائه، دَفعُ عربة الحديد بأقصى قوة مُحببٌ لنفسه، وينجح دائمًا في كسب مَن ينافسه، يتفق مع العجوز المبتسمة، صاحبة الوشم الأخضر فوق جبينها أن تحضر لداره لرسم الحنة على سَاقي بدر.. يفتنه إسعادُها وإدخالُ السرور عليها، حتى وهي ببطن منتفخ على وشك الولادة، المولودُ الجديد سيصبح أخًا لأبناء لطفي، لا يحمل قلبه للطفي غير كل محبة، كما كان طوال الوقت.

الحنة تضفي على جسد بدر سحرًا وجمالًا، جلدها نقي رقيق كأنه لوحة بيضاء، الجَمال لا يُخفيه حزنٌ، بل يزيده هيبة وإجلالًا، ولا يطمسه جفاء وقلة عناية، بل يجعله كالأرض الجافة المتعطشة للماء.

الصغار يقذفونَ عَزب المجذوب بالحجارة كما اعتادوا، وهو يسب ويبصق عليهم، ويجري مُحاولًا الهرب منهم، وتفادي حجارتهم، يُلوح بعصاته المعوجة في الهواء، وتزيد سرعته في العدو كلما زادت الحجارة، اقتربَ من دار رفاعي المهجورة، وقرر الاختباء بداخلها، حتى يفقد أثره الصغار.

قفز من النافذة الجانبيّة المُتهالكة غير المُحكمة الغلق في آخر الدار، ووثب بالداخل بجلبة أفزعت صُبح العارية على الفراش القديم بصحبة باذنجانتها، توقف الزمنُ وتجمد الدمُ بعروقها، وجف حلقها من الصدمة والمفاجأة.

كلاهما ينظر للآخر بفزع ودهشة، وقد صدمه وجود الآخر، بعد هُنيهة من فقدان الاتزان عادت لصُبح القدرة على تحريك أطرافها لتضم ذراعيها تخفي بعض الظاهر من جسدها عن عَيني المجذوب.

عزب لم يتزوج، ولا يتذكر أحدٌ من أهل البلد أنه كان يومًا عاقلًا مثلهم، وُلِدَ هكذا بخفة عقله، منذ صغره يُعاني البلاهة والنظر للسماء، والتحدث مع غامض مجهول لا يراه سواه.

بعضهم مقتنعٌ أنه وُلِد دون عقل، والبعض الآخر أعجبته أكثر قصة أن به مسًا من الجن، وأنه ملبوس، أيًا كانت قصته فإن ما حدث قد حدث، يقفُ في دار مهجورة، وأمامه سيدة عارية بالكاد تُخفي بعضًا من نهديها بذراعيها، وتخبئ موطن عفتها بكفي يدها.

توقف قلب صُبح عن ضخ الدم لرأسها، لتتمايل فوق رقبتها وترى سقف الحجرة يهوي ويلتحم بأرضها وتفقد الوعي، ولا تفيق إلا بعد دقائق وغريزة عزب قد دفعته للصعود فوق جسدها، وأخذ مكانه بين ساقيها.

لا يمكن أن يكون ما يحدث واقعًا وحقيقة، لا بد أنه كابوسٌ من تلك الكوابيس التي تهاجمها أحيانًا، وترى نفسها بين ذراعي رفاعي، جسدها يتشنج رافضًا ما يحدث، وشهوته تلجمه تمنعه عن الابتعاد.

كَتائهٍ في الصحراء منذ أيام وجد أمامه فجأة جرة ماء، ظلت تضرب وجهه وترفس بساقيها في الهواء وهو متمكنٌ منها تمكن جذر النخلة بالأرض، ما زالت تحيض ويمكنها الحَمل، لا يمكن أن تحمل من عزب المجذوب، بقايا من عقل ذكَّروها بكارثة ما يحدث، فدفعت جسده بكل قوتها حتى استطاعت أن تخرجه من بين ساقيها، ويسقط خطره بعيدًا عنها لتنجو من عار لا يمحيه شيء.

خارت قوة الثور، وتركها تهرولُ وهي تلطم وجهها، وترتدي جلبابها، وتغادر مبهوتة مفزوعة نحو الساقية، لتدفنَ رأسَها في كفيها، وجسدها يرتعدُ كأنها محمومة.

القضاءُ والقدر قتل عمارة، وهو أيضًا مَن أرسل لها المجذوب وهي وحيدة تظن أنها بعيدة عن كل البشر والأعين، كم من الأمور تحدث بغتة دون توقع أو ترتيب.

سقطت قلة الماء من يدها المرتجفة مَرتين، قبل أن تُحكم قبضتها عليها بصعوبة، وتتجرع شربة ضئيلة تُعيد الرطوبة لريقها وجوفها، تُحدِّث الساقية وشجرة التوت باكية، وتخبرهما بيأس وأسف أنها لم تُخطئ، ليست عاهرة صاحبة خطيئة، تمكن منها المجذوبُ وهي فاقدة للوعي، وغير مُدركة لما يحدث.

خرَّ جسدُها بجوار المقام، وظلت تبكي حتى جف الدمع من مقلتيها ساعة أو أكثر حتى نهضت من جوار المقام، وتحركت لدارها وهي تحملُ فوق ظهرها ندمَ الخطيئة وألمها.. قابلها عزب في طريقها، انشقت عنه الأرض، ووجدت نفسها أمامه، ارتعدت وارتجفت، وحدَّقت فيه بخوف بالغ كاد يفقدها وعيها مرة أخرى، قبل أن يرمقها بنظرة قصيرة، كأنه لا يعرفها، ويكمل طريقه وهو يهز رأسه بتتابع ويصيح بحماس: حي.

كَمَن وجد اليابسة قبل أن يستسلمَ للغرق، ويترك جسده لوحشة البحر، هدأت نفسُها وتنفست الصعداء، المجذوب لم يُدرك عقله ما حدث بينهما، نجَّاها الله من العار والفضيحة، ولم يتبقَ لها غير الندم والحزن جرَّاء ما حدث.

لأكثر من أسبوع ظلت تصطنعُ الحجج للسير بشوارع وحواري البلد؛ بحثًا عن صدفة جديدة تمكنها من لقاء ورؤية عزب، تريد المزيدَ من الإثبات أنه لا يعي ما حدث، ولا يتذكر عقله شيئًا.

فقط حرّكته غريزته، كما تتحرك غريزة الكلاب الضالة وسط الحقول، وبعد الحدوث يذهب كلٌّ منها في طريقه.

رأته ثلاث مرات، وفي كل مرة تمر به دون أن يميزها أو يأتي بأي فعل يفزعها أو يُعيد الخوف والقلق لفؤادها، حتى حدث ووجدته يمر جوار الساقية يضرب حجارة الأرض بعصاه المعوجة، جالسة وحدَها مع صغيري ابنها حسن تقطفُ لهما التوت.

بعد انتهاء أي خطيئة تعود السكينة والشجاعة للقلوب، ويتبدل بالفزع والقلق الراحة والهدوء.

الخطيئة.. خطيئة، كبيرة كانت أو صغيرة، كما تبدأ تنتهي، وكما تؤلم تُنسَى وتخفت حدتها، ويبهت وقعها بالنفوس.

في الساقية، وتحت شجرة التوت تحمل شجاعة وثقة لم تجد أيًا من رائحتهما في دار رفاعي المهجورة أمام المجذوب، نادت عليه بعد تردد، وقدمت له بعضًا من حبات التوت، تناولها منها بسعادة، وأكل بشراهة واستمتاع، وهو يُداعب سعد ونورا بطفولية، كأنه طفلٌ مثلهما.

جلست مُبتسمة تتابعه براحة، وهي تتفحصه بهدوء وتدقيق لأول مرة، ورغم قذارته واتساخه، فإن بوجهه مسحة ملامح مقبولة، وإن غطت ذقنه الكثيفة أغلب وجهه.

يُقارب في العمر ولدها المرحوم حسن، أو يزيده بقليل، أحزنها كثرة ما تحمله ملابسُه من قذارة، وما يحمله جسده من اتساخ، قامت بنفسِها وجلبت من بئر الساقية جرة ماء، وأمرته برفق وعطف أن يغسل وجهه وذراعيه وهو يطاوعها ويهتف برضا:

- حي.. الله حي

مدد يا صاحب المدد والإحسان.

الزغاريدُ تنطلق من دار زيدان، والنساء تتوافد على بدر تبارك لها المولود الجديد، أنجبت لزيدان الطيب ولدًا جميلًا حملَ من وسامته وحُسنها ما جعله يَسُر أعين الناظرين، والأهم على الإطلاق أن له عينين خضراوين كعَيني أمه.

الفرحة جعلت زيدان يذبح عجلًا سمينًا هائل الحجم، وزعه على فقراء البلد وأقام مأدبة كبيرة لأعيانها، حاتم المولود الصغير هو حلقة الوصل بين أبناء بدر من لطفي وزيدان، الغريب أنه أول أبنائها، يأخذ لون عَينيها ولون بشرتها، وكأن زيدان من شدة حبه لها وهبها من روحه ما جعل المولود يشبهها.

فرج ابن الشيخ محفوظ، شيخ المسجد، يُحدث أقرانه من شباب ورجال البلد أن يرافقوه في السفر، يجلسُ معهم عند عشة صفتي، على شاطئ الترعة الكبيرة، ويقص عليهم ما رآه وفعله في سفره للعراق.

المالُ هناك كثيرٌ، والعمال مطلوبون، والسفر سهل لا يحتاج غير ثمن تذكرة الطيران، وأهل العراق يُحبون المصريين، ويشبهونهم في كثير من العادات والأفكار والتقاليد.

كلامه يستميل عددًا لا بأس به من مستمعيه، الفكرة داعبت عقل بركة، ورغب في أن يفعلَ مثلما فعل فرج، ويجرب حظه في السفر، لا يملك بالبلد غير نصيبه من ميراث أبيه عمارة في القيراطين.. يعملُ باليومية التي تكفيه بصعوبة في أرض العمدة، لماذا لا يفعل الشيء نفسَه بالعراق، ويجلب منه مالًا أكثر وأوفر يمكنه من شراء الطين، ويزرع في أرضه هو، ويصبح خيرُها له ولأولاده؟.

أكثر من عشر جلسات تحت شجرة التوت مع أمه صُبح أو معها ومع قنديل كلما جاء لزيارتهم حتى استسلمت في النهاية لرغبتِه، ووافقته على السفر.

قنديل في مصر يُكمل دراسته، ونسيم ببيت طبيب المركز منذ ولادتها وجدي حفيد الطبيب، وحامل اسمه، إكرامًا له وتعبيرًا عن حب فايز له، لن يبقى غيرها لرعاية ابنتي بركة وزوجته نعمات، وسعد ونورا ابني المرحوم حسن.

عبء مصاريف قنديل خفّ من عليها منذ أن أخبرها بأنه يعملُ ويتدرب مع أحد أساتذته في عيادته الخاصة، ولم يصبح بحاجة لمساعدتها له، رعاية الساقية وماكينة الفرز كافيتان لها ولأحفادها، حتى يعود بركة ويشتري الطين، ويحقق الأمنيات.

عشراتُ من شباب ورجال أبو طيب ذهبوا بصحبة بركة للعراق، كلٌّ منهم يحملُ أمنية ورغبة يجنيها من وراء السفر، تحسين الحياة وسد الاحتياجات أمران يستحقان السفر والتعب.. أرضُ الله واسعة، ولهم في الهجرة أملٌ ورجاءٌ.

زيارة نسيم للبلد أصبحت متعاقبة أسبوعية هي ووجدي أصغر الأحفاد، وزيارة عزب للساقية أصبحت مُعتادة شبه يومية، وأحيانًا

يساعد صُبح في جَر ثورها وجاموستها لدارها، ينتظر جزاءه حبات من التوت، أو صحنًا به قطعة جبن وحبة طماطم أو خيار.

تشكره دائمًا لمُساعدته، ولا تكف أبدًا عن صب الماء له من بير الساقية لغسل وجهه ورأسه، فقط أصبحت كلما هاجمتها الكوابيس رأت عزب بدلًا من رفاعي، لم يُغادر ذهنها ما حدث في الدار المهجورة، تزداد ضربات قلبها، ويندي العرق جبينها كلما تذكرت ما حدث.

لم يفتنها المجذوبُ بما يحمله جسده من وسخ أو تحمله ملابسه من قذارة، لكنها تتذكر مشهدهما وهي عارية وهو يتراقص بعشوائية بين ساقيها، وتتمكن منها الرغبة، ويصرخ جسدها من شدة حرمانه واحتياجه.

قدرُها أن تسكن روحُها بداخل جسد تفيض منه الأنوثة والرغبة كما يسيل العسل من فوهة الإناء، لم تكن كذلك بعد عمارة، لكنه رفاعي وأيامها معه من خلقت بداخلها تلك الرغبة التي نادرًا ما تهدأ أو تختفي.

عزب يمرحُ أمامها كل نهار كقطعة خبز أمام جائع يتضور جوعًا، لم يعد رفسها في فراشها في ظلمة الليل، أو حتى مُصاحبة حبة الباذنجان يُشبعان رغبتها أو يخمدانها، كلما فعلت زاد جوعُها ورغبتها في تناول قطعة الخبز.

عزب يحمل حزمة ضخمة من القش فوق كتفِه، ويتبعها وقت الظهيرة، وهي تمشي أمامه خائفة مرتعدة، تتلفت في كل اتجاه بتوتر وقلق حتى وصلا إلى دار رفاعي المهجورة.

الدار المهجورة خير اختيار لتخزين القش، أغلقت الباب وأحكمت إغلاقه، ولم تعرف ماذا تفعل، صوت يطلب منها الخروجَ وعدم الاستسلام، والصوت الآخر يهمسُ لها بأنه لا أحد يراهما، وكل شيء سيمر دون مصائب.

مجرد دقائق، ولن يشعر بهما أحدٌ، ولن يتذكر بعدها المجذوب أي شيء، تحركت وهي تتحاشى النظر لعينيه للداخل نحو الحُجرة ذات النافذة غير المُحكمة الغلق، وقفت بجوار الفراش المتسخ المحمل بالتراب، لا تعرف ماذا تفعل، تنظر له ولا تجد منه غير حركة رقبته لأعلى يمينًا مرة ويسارًا مرة، وهو يمط فمه دون صوت.

العرق ينساب من رأسها يتخلل ملابسها بغزارة، كأنها تقفُ تحت سماء مفتوحة يتساقط منها مطرٌ غزيرٌ، الشهوة تجثم على فؤادها، وحرارة جسدها ترتفع، وتشعر بملابسها كأنها شوكٌ حادُ الرءوس.

تزفر بحُرقة، وتخلع جلبابها ذات القماش السميك، وتبقى فقط بجلباب داخلي أخف وأنعم، تلتفت نحوه وقد حسمت أمرها أن تعيد الفعلة مرة أخرى من جديد.

تتفاجأ به قد تحرك، وجلس القرفصاء بجوار الجدار ويتغوط، دُهشت وصُدمت، ثم فاقت على واقعها، وعاد لها رشدُها، وأيقنت أنها أمام طفل صغير بجسد رجل ضخم.

ثوان ثقيلة مرت عليها وهي تترنح كورقة جافة ذابلة تسقط من أعلى أغصان شجرة التوت، عاد جلبابها السميك يغلف جسدها وتركته يكمل ما يفعل وخرجت بنَفس شاردة وقلب مفعم بالمشاعر المتناقضة.

لسانها يتمتم رغمًا عنها كلمات عزب دون أن تشعر:

- مدد يا صاحب المدد والإحسان.

دون تفكير أو قرار توجهت نحو المقام بفؤاد هادئ هجرته الشهوة وحل محلها حنين مُبكٍ لعمارة الطيب زارع شجرة التوت وراعي الساقية، جلست شاخصة بجوار المقام مُمسكة عامود زاويته، وهي تدققُ في تغطية قدميها بقماش جلبابها السميك.

استجابت الدعوة، ونالها من كرامات المقام كرامة الهدوء وموت الشهوة والرغبة، لم تبك هذه المرة، ظلت تردد دون انقطاع بإجلال:

- الحمد لله.. الحمد لله، مدد يا صاحب المدد والإحسان.

انتهت من جلستها بجوار المقام، وكعادتها ساقتها قدماها نحو الساقية، لا أحد يحنو عليها ويُؤنس قلبها مثلما يفعل ظل شجرة التوت،

السعادة تغمرها هذه المرة، بعكس المرة الأولى، تشعر براحةٍ وبهجةٍ وانتشاء، أنقذها الله من فعل الخطيئة بقرارها وعقد النية.

التقطت صحنًا كبيرًا، وظلت تجمع حبات التوت بنشاط ووافر صحة، حتى جمعت ما ملأ الصحن، واتجهت نحو المقام.

وزّعت التوت بابتسامة على الجالسين من العجائز والدراويش والصغار، وهي تدعو للشيخ شفيق صاحب المقام، وما هو أفضل من فِعل الخير لمحو أثر خطايانا.

6

الطاحونة

إنني أعِدُكم أنني سأكونُ للجميع، للذين قالوا نعم والذين قالوا لا، إن الوطن للجميع، والمسئول فيه مُؤتمن على الكل بغير استثناء.

أهلُ أبو طيب يعشقون العبارات المرسومة بالمشاعر والعاطفة، استقبلوا كلمات أنور السادات بترحيب وتبجيل، بعد أن سمحَ العمدة لخفره بوضع تلفازه الكبير أمام داره ليسمعَ كلُّ أهل البلد خطابَ الرئيس الجديد.

العُمدة مأمون لم يُفوت الفرصة كي يُمارس هوايته المحببة، ويخطب في أهل البلد، ويردد على أسماعهم كل ما يُشعرهم بقوتِه وسُلطته ومدى نفوذه.. أخبرهم بلكنة واثقة تحملُ معرفة ما لا يعرفونَ من أمور وأشياء أن السادات سيفعلُ ما يرجون وينتظرون.

الرئيسُ الجديد يؤكد أن الأسعار ستتحركُ للوراء، ويقل ثمنها، والأهم أنه وعد بإدخال الكهرباء للقرية لتصبحَ رأسًا برأس مع البندر، وتضاء شوارعها وحواريها بمصابيح كهربائية.

قليلٌ من تذكّر جمال وترحّم عليه، وأكثرهم انشغل بالحديث عن فرحة دخول الكهرباء في القريب وانتظار تحقيق الوعود.

الحيّ أبقى من الميت.. هكذا تحدَّث أحد خفر العمدة لرفيقه، وهو يرفعُ صورة جمال من حُجرة التليفون الميري بدوار العمدة، ويضع مكانها صورة جديدة للسادات، الأمل يخلق الصبر بقلوب الفقراء، ويهب الأغنياء الثقة والثبات.

مأمون يشعر بسعادةٍ ويُمنّي نفسه بثروةٍ أكبر، ومكاسب جديدة، الطاحونة تعملُ طوال النهار، من بعد الشروق وحتى العِشاء، ضجيجُ الطحن يخلقُ السعادة بداخلِه، لا يفوت نهارًا، دونَ أن يزورها ويشدد على منصور المسئول عنها بالعملُ بجدية واهتمام، ولا يترك جرامًا واحدًا من الدقيق يذهبُ بلا طائل.

حتى تلك الكمية الواقعة على الأرض يأمرُ بجمعِها وخلطها بالتبن، وجعلها علفًا لبهائم لغيره، ولَمن يُريد شراءها.

نعمات بعد سفر بركة وغربته قررت بيع الدقيق لنساء القرية بدار زوجها، الأمرُ سهلٌ وبسيط، تأتي النساء من أجل ماكينة الفرز، ومن السهل أن يشترين منها الدقيق ومُستلزمات العجين والخبيز.. واعية مُجتهدة ودائِمة النشاط، لا تَكل من عَمل مهما كانت صعوبته ومشقته، سمراء مليحة رغم تلك الوحمة شديدة السواد التي تعلو جبينها، وتغطى

ثلثه، تذهبُ كل بضعةِ أيام للطاحونة، وتشتري أجولة الدقيق وتحملها فوق حِمارها حتى الدار، ثم تذهبُ لُمساعدة حماتِها.

تحملُ الكثير من الأعباء عن صُبح وتعتني ببنتيها، وبابني المرحوم حسن وأمور الأرض والدار، لا يُنغّص عليها شيء غير فشل الحَمل أكثر من مرة متتالية بعد إنجاب البنتين.

منصور يُعاملها معاملة خاصة، ولا يطالبها بثمن الدقيق مثل الأخريات إلا بعد أن تبيعه، وإن كان يفعل ذلك دون علم العمدة الذي لا يقبل أبدًا أن يترك مليمًا واحدًا من ماله عند أحد، مهما كان.

مُعاملته الخاصة لم تتوقف عند تيسير البيع والشراء، فور رؤيتها يهب من خلف مكتبه الخشبي مُبتسمًا، ويُساعدها بنفسِه في وضع الدقيق فوق ظهر الحمار.. عدة شهور منذ سفر بركة ولم تجد منه غير كل مودة ومساعدة بتمييز واضح عن كل من يأتين للطاحونة من نساء، وفي المقابل كثيرًا ما تهديه لبنًا طازجًا دافئًا في الصباح تقديرًا لطيبته وخدماته.

حتى الست نادرة العجوز التي تعمل بالطاحونة، وتجلس ثابتة دائمًا بمكانها بجسدها شديد البدانة تفركُ حبات الذرة الجافة وتهيئها للطحن- كانت تلاحظ معاملة منصور المختلفة مع نعمات، ودَفعَها فضولها يومًا لسؤاله عن سر ذلك ليُجيب دون اكتراث:

- أفعلها لوَجه الله.

كثيرٌ من الأمور تتم في البلد من أجل الله.

صُبح لم تتوقف عن رعاية عزب، وتقديم الطعام له، وسَكب الماء فوق رأسه، حتى إنها أهدته مرة جلبابًا من ملابس فقيدها حسن.. تفعلُ كلَّ ذلك من أجل الله، وتبالغ فيه إثباتًا لنفسها ولربها أنها عادت كما كانت صفحة بيضاء لم تلوثها خطيئة جديدة، وهدأت وسكنت رغبتها، ولم تعد بحاجة لشيءٍ سوى تلك اللحظات في ظلمة حُجرتها تتعرق وترفس وتتلوى حتى يرتاح الجسد وتخفت الرغبة.

في كل جمعة تذهبُ من الصباح الباكر للبندر لزيارة نسيم، وهي تحمل لها كوز التوت، أو دكر بط سمين لحَماها، أو زوجين من دجاجاتها، الحياة ببيت طبيب المركز لطيفة هادئة، لا تختلف عن الحياة في المنيل كثيرًا، فقط تفتقد نسيم لجلستها في الشرفة، ومُشاهدة عالم مصر الذي يفوق البندر مرات ومرات.

الجَد وجدِي لم يعُد يشغله شيءٌ في الدنيا أكثر من حمل حفيده ومداعبته، وحث فايز ونسيم على جلب أحفاد آخرين، يُريد عزوة كبيرة، وأحفادًا كثيرين يُعوضونه عن حياة الخوف التي عاشها على وحيدِه فايز.. لم يُنجب غيره بعد أن فقدت زوجته رحمها بسبب المرض عقب ولادته، ولم يكن من هؤلاء الرجال الذين يجدون في الإنجاب سببًا

وجيهًا للزواج من ثانية، وثالثة وحتى رابعة، مكانته كطبيب المركز منعته من فعل ذلك، وجلب زوجة ثانية لزوجته، ابنة الحسب والنسب.

تعيشُ نسيم معهم بمثابة الابنة، ويحملون تجاهها مشاعر صادقة غاية في الطيبة والعطف.

في كلِّ زيارة لها للبلد تخطفُ الأبصار بهيئتها الجديدة، ابنة رفاعي البلطجي وصُبح الفقيرة، ترتدي ملابس عصرية، ولا تغطي شعرها وتحضر للبلد بأتومبيل طبيب المركز.

البعضُ فَرِح لحالها الجديد، والبعض الآخر يحملُ قلبه حسدًا وحقدًا بالغين، يذكرونها بينهم دائمًا بابنة رفاعي، كي يُقللوا من حالها ويحطوا من شأنها، لكن ماذا يضرها في ذلك وهُم لا يملكونَ غير المدح والثناء في حضورها ويلقون على مسامعها كل ما هو طيب وإن كان من وراء قلوبهم.

تشتاقُ لجلسة الساقية والتنعم بظل شجرة التوت، تلك الشجرة التي لا ينقطعُ ظلها حتى في فصل الخريف، بسبب كثرة أغصانِها وشدة عرضها وارتفاعها.. تبتسمُ رغمًا عنها كلما مرت بشاطئ الترعة، وتلمح سيقان الفتيات والنساء وتتذكر ما كانت تراه على كورنيش المنيل، الجونلات القصيرة ليست الطريق الوحيد لرؤية سيقان النساء.

مات الشيخ عبد السند والد زيدان، مُعمَّر قارب على مئة سنة، كان أكبر أهل البلد سنًا، وعاش أواخر أيامه لا يترك مكانه بالمسجد الكبير، حتى إنه كان ينامُ فيه، فلم يكن يستطيع الحركة.

وفق الأصول، قام زيدان بذبح عِجل على روح الشيخ المرحوم، موت المُعمرين رحمة بهم من الله، وقد فقدوا كل قدراتهم على الحياة الطبيعية.

انتهت التعازي، والقيام بالواجب، وجمعَ زيدان إخوته وأخواته كلهم وقرر توزيع الميراث وفق شرع الله.

قِلة من تعطي النساءَ نصيبهن من الميراث في البلد، أغلبُ أهل أبو طيب لا يعطون النساء أنصبتهن من الميراث، ويكتفون في أحسن الأحوال بإعطائهن قدرًا بسيطًا من المال تعويضًا لهن عن الميراث.

زيدان غير الجميع، قلبه عامرٌ بالإيمان والطيبة والرحمة، لم يَحجب عن أخواته البنات نصيبهن، وأعطاهن إياه بكل رضا وطيب خاطر، رغم اعتراض إخوته من الذكور.. الرحيمُ بأبناء زوجتِه من رجل آخر، بكل تأكيد رحيم بأخواته البنات، وقتٌ طويلٌ منذ زواجه من بدر، لم يقل حبُّه لها لحظة واحدة أو يتسللُ المللُ والاعتياد لقلبه.

الشحوبُ يكسو وجهها، ويتبدلُ بياض بَشرتها بصفرة تزداد قتامة بمرور الوقت، وتشكو باستمرار من ألم مُتزايد ببطنها، خلع الدكتور

وجدي نظارته السميكة، وأخبره بحزن وأسف أن كبد بدر في حالة متأخرة.

لا شك أن البلهارسيا أصابتها منذ زمن، وأعيت كبدها، وأصابته بالتليف والضمور.

نزعُ الروح أهونُ عليه من سماع ما يسوءها، لم يفوت غير ليلة واحدة وكان يصحبها لمصر لقصر العيني، يبحث لها عن دواء، ويبحث لمرضها عن علاج.

لوعته عليها أدمَت قلبه، وأصابت جسدَه بالهُزال، وفقد الكثير من وزنه، وهو يطوفُ معها مكانًا بعد مكان، ولا يحدث شيء غير تضخم أكبر لبطنها كأنها عادت للحَمل من جديد.

لم تفلح معها إبر الأطباء، ولا أدويتهم ذات الروائح النفاذة، وجهها تحولت صفرته لقتامةٍ بنيةٍ، وتجمعت الهالاتُ السوداءُ حول عينيها اللتين أدمن النظر إليهما، والافتتان بهما.

لم يسمع من الأطباء غير كلمات المُواساة وحثه على الصبر والرضا بقضاء الله، حتى قنديل وفايز عندما صادفاه لم يتركاه وزوجته يومًا واحدًا دون مرافقتهما وتقديم ما يستطيعان من مُساعدة.

رؤيتهما للسيدة المتمكن منها المرض كان أهونَ عليهما من رؤية الرجل الشاحب البائس، كمَن يقف أمام مارد بالغ القبح والبشاعة، تليف فؤاده بالحزن واللوعة يفوقُ تليفَ كبدها بمراحل.

يشم رائحة الموت، وهو يجلس بجوارها على فراشها، ويرى تلون شفتيها باللون الأسود، وهي تجاهد لتحدثه ويخرج صوتها بوهن وضعف أقرب للهمس:

- سامحني يا زيدان، لم أرغب أبدًا في فراقك.

ينسابُ الدمع من مقلتيه، ويقبل يدها باكيًا بحُرقة:

- لا.. لن يحدث شيء، لن أسمح لشيء أن يحرمني منك.

تُحرك يدها بصعوبة وتضعها على خده ويبللها دمعه الكثيف:

- أكرمتني وعِشت معك أجمل أيام عمري.. أوصيك أولادي ولا غيرك أئتمنه عليهم.

يقبل باطن كفها بتسارع ملتاع، وينهض كالملدوغ للخارج، ويُمسك قنديل من منكبيه بقوة وفزع، وهو يصيح فيه وفي فايز بلوعة طفل فقد يد أُمِّه في الزحام:

- افعلا شيئًا، تصرفا، ولا تقفا هكذا تنتظران تقديم التعازي.

يُحاول قنديل تهدئته دون جدوى، وهو لا يعرف كيف يخفف عن الرجل المكلوم أمامه، وزيدان يعاود الصراخ والهتاف بردهة المستشفى:

- انزعوا كبدي وأعطوه لها، ما حاجتي له لو فقدتها؟!

تجمع الأطباء والممرضونَ وحتى أقارب المرضى حوله، وكلُ منهم يحاول تهدئته دون جدوى، وقد أصاب عقله لوثة، وظل يُكرر صياحه كأنه لا يراهم، حتى تذكر بدر وأنه تركها وحدها منذ دقائق، ليهرول عائدًا لها، ويقف أمامها جامدًا كالصخر، وهو يعي أنها ماتت وفارقت الحياة وتركته وحده يبكيها ما تبقى من حياته.. لم يُفلح معه شيء غير إبرة من إبر الأطباء، جعلت جسده يَخرُّ ويسقط في النوم، ورأسه يرتجف كأنه يُقاوم المخدر ويرفض سطوته.

اتصل قنديل بدوار العمدة، ينقل لهم الخبر، ويطلب قدومهم لنقل الجُثمان للبلد.

سار زيدان جسدًا بلا روح خلف النعش، مُتجمد البصر جاحظ العَينين، حتى أحاط كفنها بالرمل المبتل بدموعه، ووقف أمام باب قبرها بعد غلقه، واضعًا كفه عليه، وهو يبكي كطفل صغير، ويُردد بصوت متقطع: مع السلامة يا غالية.. لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله.

أفعالُ القدر لا يمكن لأحدٍ منعها أو صدها، فقط يظل أفضلنا مَن يتحملها ويصبر عليها، زيدان الطيب الرحيم، وَهَبَه الله الصبر والرضا

بالقضاء، صورة على الحائط بحُجرته لبدر كانت هي سلوته ليل نهار، يظل يتطلع إليها بشرود، ويتذكر لحظاته معها.. لهما في كل ركن ذكرى، وفي كل شيء موقف مر بهما، يُحدق في صورتها باشتياق ولوعة، ويُحدثها بينه وبين نفسه.

أخواته البنات لم يتركنه وَحدَه، وتعاوَنّ بالتناوب على رعايته ورعاية الصغار.

لم يعُد هناك حُجة لبقاء أولاد لطفي بداره بعد رحيل أمهم، طلبهم عمهم دسوقي ليكفلهم كما تجري القواعد والأصول، العُرف يخالف رغبة زيدان، إن لم يفعلها دسوقي لأكلَ أهلُ البلد وجهه، وفقدَ كرامته، وهو تاركٌ أولاد أخيه ببيت غريب.

إخوة زيدان يُلحون عليه أن يتزوجَّ مَن يرعى الرضيع، حاتم الصغير لم يُكمل عامه الأول بعد، ويحتاج لأنثى ترعاه، وهو لا يطيق أن تأخذه إحدى أخواته لترعاه وسط أبنائها.. كيف يتركه وهو أكثر ما يُذكِّره بزوجته الراحلة، ويرى ملامحها في خضار عينيه، شهرٌ واحد على رحيلها وكل شيء من حوله وكأنه خُلِق ليحطم ما بقي من فؤاده.

دسوقي يريد أخذ أولاد أخيه، وإخوته يُلحون عليه بالزواج، وكأنه فقد عنزة وليست زوجة كان يهيم بها عشقًا.. لجأ للشيخ محفوظ كي يتوسطَ بينه وبين دسوقي، ويرجوه أن يترك أولاد بدر ولطفي بداره.

للشيوخ مكانة عند الجميع، ووساطتهم تفلح كثيرًا في إنهاء الخلافات وإيجاد الحلول.. الصغار متعلقون به كما يتعلق بهم، ويعتبر رعايتهم أقل وفاءً يقدمه لروح المرحومة.

فَهِم منه الشيخ محفوظ كل شيء، وطرق باب داره بعد ليلتين، وجلسَ معه يحدثه بصوت أب عطوف.

الحلّ الأمثل لمحو كل العقبات أن يتزوج زيدان من أخت لطفي ودسوقي، أحلام المطلقة، عاقر تزوجت بضع سنوات من غريب من بلدة مجاورة، ولم تنجب، وحسم طبيب المركز الأمر، وأخبرهم بأنها عاقر ولن تنجب.. وُلِدت برحم يعاني من التشوه والضمور، ولن تتمكنَ من الإنجاب أبدًا، إن تزوجها ورضي بعيبها يمكنه تربية أولاد لطفي وبدر بداره، ولمَ لا؟ وما يعيبه، وهم سيكونون تحت رعاية عمتهم، ولا يمكن لأحد من أهل البلد لوم دسوقي على ذلك.

الضروراتُ تبيح المَحظورات.

جلسَ زيدان بعد مغادرة الشيخ محفوظ أمام صورة بدر يُحدثها ببكاءٍ، ويطلب منها العفو والمغفرة لما هو مُقدم عليه.. لن يفعلَ ذلك ليجد بفراشه امرأة عند عودته في المساء، بل يفعل كي يتم عهده لها برعاية أولادها وابنهما الرضيع.. تم كل شيء بسرعةٍ في بضعة أيام.

تلك الزيجات تتم بلا صخب، فقط بعض الزغاريد بدار دسوقي قبل أن يصيح بهم أن يتوقفوا احترامًا للراحلة التي لم تتم الأربعين بعد على وفاتِها.

بحضور العمدة وشيخ البلد والشيخ محفوظ والشيخ إبراهيم وبعض وجهاء البلد عُقد القران، وصحب زيدان زوجته الجديدة أحلام إلى داره.

وكأنه كُتب عليه أن يتزوج كل مرة دون قراره الخاص، جلس أمامها بحجرتها يرحب بها، ويخفف عنها حرجها وخجلها:

- نورتي دارك يا أحلام.

لم تكن جميلة بعينين ملونتين وشعر ذهبي، وبشرة بيضاء مثل بدر، لكنها كانت تحملُ من الجمال القدر الكافي كي لا يبغضها، أو يكره عِشرتها.

خمرية بملامح هادئة، وجسد نحيف بالغ النحافة، لولا قليل بروز في أعلاه وارتفاع باهت من الخلف، لظنها مَن يراها من بعيد رجلًا وليست امرأة، استقبلت طيبَ حديثه بابتسامة هادئة طمأنت قلبَه، وقالت بخجل:

- نِعم الدار ونِعم الزوج، يا سي زيدان.

أطربه حُلو حديثها، وأزال من قلبه مخاوفَ أن تكون مثل أخيها دسوقي جافة الحديث قليلة العاطفة:

- لن أوصيكِ بالأولاد، فهُم أولاد أخيكِ قبل كل شيء.

هزت رأسها مُتفهمة مبتسمة وقالت:

- لا توصي محرومًا بحفظ طعامه، حرمنى الله من الخَلَف، والآن يُعوضنى بأربعة أبناء مرة واحدة.. يا له من كرم وعطاء يستحقان السجود لله شكرًا.

فطن أن بقلبها جمالًا يفوقُ جمال ملامحها، حديثها ليس كحديث دسوقي الجاف، تحمل الكثير من صفات أخيها لطفي، كان مثلها حلو الحديث طيب القلب، يعشق البهجة والجمال.

دارت بعينيها في أرجاء الحُجرة، ووقع بصرها على صورة بدر لتتنهد وتقول بإجلال وحزن:

- رحمك الله يا بدر.

زفر بشجن، وهو ينظر مثلها نحو الصورة، ولم يخفض بصره إلا بعد أن اقتربت منه، وربتت على كتفِه بعطف وحنان، وقالت بصوت مُفعم بالصدق:

- أعلم أنك كنت تحبها، وكل من يعيش في أبو طيب يعلم ذلك، وأعدك ألا أشعرك يومًا بأنني أكره حبك لها أو ألومك عليه.

حاول مُقاطعتها قبل أن تشير له بيدها، وتستطرد:

- أعرف أنك تزوجتني من أجل إبقاء أولاد بدر بدارك، لكن ذلك لا يُضايقني وسأكون لك نِعمَ الزوجة ولهم نِعم الأم.

أحلام لها قلبٌ يُشبه قلب زيدان، تملك من الطيبة والرحمة مثل ما يملك وأكثر.

حاول أن يقوم معها بواجبه الشرعي كزوج لكنه فشل، وبكى بين ذراعيها دون إرادته، ورغم ذلك لم يجد منها غير حضنها العطوف، وهي تربت على رأسه، وترقيه وتذكّره بما كانت تفعله له أمه، وهو طفلٌ صغيرٌ.

كلما حاول شعر بأن بدر تنظر إليهما من صورتها، وتراهما وترى ما يفعلان، لم يجد بداخله رغبة تمكنه من القيام بواجباته كزوج، والتعبير عن ذكورته، وروح بدر تطوفُ حوله، ولا تتركه لحظة واحدة.

فقط ظل يبكي بين ذِراعيها حتى غلبه النعاسُ، ولم تكف عن رقيته وتهدئته حتى بعد نومه بوقت طويل.

يستطيعُ البعض التظاهر بالعطف والرحمة، وإن حملت قلوبهم غيرَ ذلك، من أجل غرض بنفوسهم.. منصور من هؤلاء المتظاهرين بالعطف

والطيبة لغرض بنفسِه، ولحاجة يبتغيها ويعدو خلفها، يتفانى في مساعدة نعمات كلما ذهبت للطاحونة، نادرًا ما تخلو الطاحونة من الناس وإن حدث، بقيت الست نادرة قابعة بمكانها بملابسها المغطاة بالدقيق، حتى يحسب من يراها أن جلبابها أبيض اللون، وليس أسود غطيس.

في مرة من تلك المرات القليلة بالغ منصور في إظهار عطفه ومساعدته، وساعد نعمات في حمل جوال الدقيق، ووضعه فوق حِمَارها.

لم يهتم أن تراه نادرة، ولصق في ظهر نعمات بخصره وعلق جسدها بينه وبين الحمار.. شعرت بفعلته وبهتها تصرفه وباغتها، وبالكاد فاقت من صدمتها، وهي تبذل مجهودًا كي تفلت من التصاق جسده وتبتعد عنه.

لا تعرف إذا كان ما حدث مقصودًا أم تم بشكل عفوي، وقالت له وهي تتحاشى النظر إليه وقد تمكن منها التوتر، واضطربت أنفاسُها:

- كتر خيرك يا عم منصور.

الرجل الذي يقارب عمر أبيها، لا يريد تفويت فرصة خلو الطاحونة من الزبائن، جذبها من ذِراعها وهو متلعثم متعرق، وأعادها لوضعها الأول بينه وبين الحمار، وهو يطلب منها بصوت متقطع بفعل الشهوة:

- احكمي وضع الجوال يا نعمات يا بنتي، حتى لا يقع في الطريق.

لم تلحق الاعتراض وهي مصدومة مندهشة مما يحدث، لتجد نفسها مرة أخرى محصورة بين خصره المُعلن عن استيقاظ ذكورته، وبين بطن الحمار.

كادت أن تفقد وعيها من صدمة ما يحدث، وهي تشعر بحركة خصره خلفها وبيده التي تحركت، وأحكمت قبضتها على نهديها، وهو يدَّعى عدل الجوال، مثل هذه الأمور عند حدوثها لا تتعدد ردود الأفعال كثيرًا، إما يقظة للعقل تجعلُ مَن في موقفها ينتفض، ويُنهي الأمر بسرعة، أو يحكم الخوف عليها ويسقط في يدها، ويتعطل عقلها عن إعطاء أوامره للجسد للصد والاعتراض.

دقائق وهو يمرح فوق ليونة ظهرها بخصره المرتبك المضطرب، ويداه لا تتوقفان عن العبث بما تطاله من جسدها، حتى وقعت طرحتها عن رأسها من فرط حركته، وهي تقاوم السقوط بعد أن خانتها قدماها، بأن تسند جسدها عليه وهي ترتجف بين يديه ونست تمامًا أمر السيدة البدينة الجالسة خلفهما ترى ما يحدث، حتى أنهى منصور ما يفعل وتشنج جسده وكفت يديه عن العبث بجسدها، وعاد بخطوات بطيئة منهكة لمجلسه خلف مكتبه الخشبي.

فاقت من نشوتها، وأحكمت ربط طرحتها فوق رأسها من جديد، ورمقت الست نادرة بنظرة خوف وخجل، كأنها تذكرت للتو أنها

موجودة بمكانِها، قبلَ أن تجذبَ لجام الحمار بيدها المرتعشة، وتتجه لدارهم.

طوال طريقها وهي ترتجفُ شاخصة البصر شاردة العقل، لولا معرفة الحمار وحفظه مكان دارهم لضلت طريقها بكل يقين.

لا تعرفُ كيف تركت منصور يفعل بها ذلك، ولا تستطيعُ محو صورة الست نادرة من رأسها، وهي تلوي فمها وتزفر بصوت وتكمل فرك الذرة.

شهور طويلة منذ أن سافر بركة وتركها.

لم تكن من هذا النوع الشهواني من النساء، لكنها وبإرادة مسلوبة لم تقاوم منصور، ووقفت مُستسلمة تاركة له الفرصة كاملة كي يصل لغايتِه ويُتمها.

قد يكون لفارق السن بينهما، أو لأنها مَدينة له بالفضل الكبير، بسبب دوام عطفه ومساعدته، أو أن فعلته أيقظت شهوتها الخامدة بداخلها، أو أي شيء آخر.

في النهاية حدث ما حدث، ولم تقاوم، ووقفت بين ذِراعيه وأمام خصره لا تفعل شيئًا غير التنفس بصوت مرتفع، حتى انتهى وتركها تعودُ لدارها، وهي تحمل رائحة عرقه فوق ملابسها.

7

الشارع الكبير

أصبحت عَودة المُغتربين للبلد مصحوبة ببناء منازل جديدة من الطوب الأحمر المطبوخ، ومَن لم يبن بيتًا جديدًا، هَدَّ بيته القديم، وأعاد بناءه بالطوب الأحمر، وأصبحت البيوت متعددة الطوابق أمرًا شائعًا ومتاحًا للجميع، وليس للعمدة وحده.

لم يختلف بركة عن رفاقه في فعل ذلك.. عند عَودته للمرة الأولي بعد أكثر من عامين، أعاد بناء بيتهم، بيت عمارة القديم، قبل رجوعه مرة أخرى مع رفاقه، وإكمال مسيرة الاغتراب الجالبة للنقود.

لم تتحمل صُبح رؤية أعمال الهَدّ، ولم تستطع مُعارضة بركة وفرحة الأحفاد بالتغيير والتجديد، غابت عن المَشهد وانزوت تحت شجرة التوت مُغمضة العينين، كمَن يريد التأكد أن عقله يرتب ويحفظ كلَّ الصور بدقةٍ وتركيز.

أصبح بيتهم من طابقين بالطوب الأحمر، وسكنت نعمات مع بناتها بالطابق الثاني، وصُبح بالطابق الأرضي، وأعدت حُجرة لقنديل عند عَودته وأخرى لابني المرحوم حسن.

أهلُ البلد لا يتوقفونَ عن الإنجاب، كثر عدد الأبناء والكل- إلا الفقراء بشدة- يُرسلون صغارهم للمَدرسة.

لم تعُد نساء القرية بحاجةٍ للذهاب للبندر مع كل شروق لبيع طيورهن وخضارهن، أصبح الشارع الكبير الممتد بطول البلد في مُنتصفِها هو مكان سوق أبو طيب كل صباح.

تعددّت دكاكين البقالة وصواني قلي الطعمية وقدر الفول، أصبح الشارعُ الكبير شريان البلد، وموطنًا لبيع وشراء السلع، حتى دكاكين بيع الملابس وُجدت فيه كما هو الحال في البندر.

لم يتوقف التجديد عند السوق، بل طال أيضًا كل أطراف البلد، حتى صفتي قام بهَدِّ عشته، وبناء قهوة كبيرة، وجلب لها مقاعد خشبية مثل قهاوي البندر، يجلس عليها الرجالُ والصبية طول اليوم، ويتكدسونَ في المساء، وقد أحضر لهم صفتي راديو مثل الموجود بدوار العمدة.

الحياة باتت جديدة مختلفة تموجُ بالحركة ليلَ نهار، الباقي الوحيد هو استمرار تجنب الاقتراب من شاطئ الترعة الكبيرة في جوف الليل، فما زالت الجنية باقية مُتربصة تبحث عن صيدٍ جديد.

العمدة مأمون وأبناؤه أكبرُ المتاجرين وأصحاب المال، لكن بقى لغيرهم الكثير والكثير من الأشياء التي تجلب لهم المال، وإن لم يُقارن بما يملكه مأمون وأولاده.

استمعت صُبح لحديث قنديل بحُزن وخيبة أمل، وهو يخبرها بأنه لن يعودَ للعَيش في البلد.

تغير كثيرًا عمّا قبل، بعد أن تخرج وحملَ وجهه نظارة طبية سميكة، وشاربًا ثقيلًا، وسيجارة نادرًا ما تفارقُ فمه، قرر البقاءَ في مصر والزواج من زميلتِهِ الطبيبة ابتسام، ابنة أستاذه وصاحب المستشفى الخاص الكبير.

كانت تنتظر ذلك اليومَ الذي يعودُ فيه للبلد، ويُصبح طبيبها، لكنه حسم أمره ولم تنفع معه كل مُحاولاتها، وفي النهاية ذهبت برفقة أحفادها وابنتها وزوجة ابنها لحضور حفل زفافه ببيت العروس في مصر.

الأملُ في عودة المغترب قائمٌ وموجودٌ، أما غربة قنديل، فلا أملَ فيها ولا رجاء.

ابتلعت مصر قنديل، كما ابتلعت الغربة بركة، وأيضًا كما ابتلع المجهول عزب.

ظل يختفي لشهور ثم يعود للبلد، بعد أن يجده أحدهم بالصدفة، أكثر من مرة، حتى اختفى ولم يعد مرة أخرى.

القطارُ هو الفاعلُ بلا شك، اجتذب المجذوبَ وحمله حيث لا يعلم أحد، لم يتبقَ لها غير الذكريات، تهيم فيها، وهي تجلسُ في جنتها الخاصة بجوار الساقية تحت شجرة التوت.

لا يُخرجها من رتابة الحياة سوى زيارات نسيم لها، بصحبة صغيرها وجدي، دائم اللعب والمرح، كلما زارها وزار الساقية.

عَودة فايز للبندر ولبيت أبيه والعمل في موطنه ضمنَ لها بقاءَ وقربَ نسيم منها، نقودُ بركة أتاحت الفرصة لنعمات لتوسيع تجارتها وعدد الأجولة بحوش الدار، أصبحت تبيعُ الدقيقَ والشعير وأيضًا البقوليات والحبوب.

لا أحدَ مثلها في البلد عنده ما يُوجد عندها، وأصبح اسمُها علامة تجارية معروفة للجميع، صارمة في عملِها، ونشيطة لا تتكاسلُ أو تهملُ فيه، فقط أصبح ذهابها للطاحونة في موعد ثابت نادرًا ما يتغير.

بعد الظهر وفي وقت القيلولة تذهبُ لجلب الدقيق فوق حِمارها، وكلما سنحت الفرصة وخلت الطاحونة من البشر، قام منصور ووقف خلفها دقائق يلهو بجسدِها، ويأخذ مقابل خدماتِه ومساعداته، وهي مستندة إلى حمارها تتحاشى نظرات الست نادرة.

حتى عندما ترك بركة أثره قبل سفره، وانتفخ بطنُها لم تتوقف عن الذهاب، ولم يُعطل انتفاخ بطنها منصور عن تكرار أفعاله.

طال الحَملُ هذه المرة، ووصلت للشهر الأخير، لم تصل إليه ولا مرة واحدة منذ مُدةٍ طويلةٍ، خوفها وخوف حماتها جعلا نسيم تصر على أن تلد في مستشفى البندر على يد فايز بنفسِه.. لا مجال للمُجازفة هذه المرة.

الأحاديثُ لا تتوقف في قهوة صفتي، وكلها تدورُ حولَ الحرب، اليأسُ مُتمكنٌ منهم، وهم يسمعون من الجميع أن قرار الحرب ومواجهة العدو مُؤجل تمامًا، وأن السادات يختلفُ كثيرًا عن جَمال.

كلما عاد صادق، ابن العمدة، من ثكنته في الجيش، جلس معهم في القهوة وأخذ يطمئنهم أنه وزملاءه من الضباط لن يُثنيهم شيء عن الحرب، وطرد العدو من الأرض.. لكن الأمور لا تؤخذ هكذا بلا حساب وتخطيط واستعداد.

أنهى سعد، ابن المرحوم حسن، الابتدائية، ولم يكن مثل عمه يُحب إكمال دراسته، جذبه العملُ مع نبوي، زوج أمه، وقيادة الجرار الزراعي.

زوج عواطف رجل طيب، ويُعامل سعد ونورا ابني زوجته بطيبةٍ ومودةٍ، ويعتبرهما مثل أبنائه من عواطف.

نبوي أول من امتلك جرارًا في البلد، وعمله دائمٌ لا يتوقف، وسعد فتى قوي البنية، وخير من يأتمنه على مالِه وجراره.

دخل دارهم يَعدو من الفرحة فور عودته من البندر، ليُبشرَ جدته بولادة نعمات، وإنجابها ولدًا لعمِّه.

انطلقت زغاريد صُبح، وسُرعان ما اختلطت بزغاريد مُتعددةٍ قادمةٍ من خارج الدار أثارت دهشتها التي لم تستمر طويلًا لتعرف سببَها.

الكلُّ نساء ورجال، يُهللون في الخارج؛ بعد أن سمعوا خبر العبور من الراديو، بدأت الحربُ وفعلها السادات بعد أن ظنّ الجميعُ أن الرجل أبدًا لن يفعل.

ابن بركة بشرة خير، خرج للدنيا وسط فرحةِ الجميع، سمَّته جدته منصور،

ورغم اعتراض نعمات ورفضها، فإن صُبح قررت وتمسَّكت بالاسم، لا تعرف أنها بذلك جعلت نعمات دائمًا تذكر خطيئتها مع المعلم منصور، مفارقة مؤذية محزنة لا تملك شرحها، ولا الإفصاح عنها، لتستسلم في النهاية لرغبة الجدة وتصبح أم منصور.

المولودُ الجديدُ لبركة خرج للحياة بعد أن وفرت له غربة أبيه فدان مِلك من الطين، وما زال الرجاء قائمًا أن يُصبح فدانين أو أكثر، ما دام الدينار العراقي يأتي بسهولة بفضل بركة.

امتلاك الطين يُعطي مكانة لا تتزعزع في أبو طيب، الطينُ يجلب الخير والثروة والحياة الطيبة الآمنة، كحياة زيدان ووحيده حاتم وأولاد زوجته الراحلة.

لم يتخيل يومًا أن يرى بعينيه حبًا وعطفًا بنفس طريقة أحلام، العطف والحنان مصدرهما الفؤاد وليس الرحم، تحبهم وتبذل أقصى ما في وسعها

لخدمتهم ورعايتهم، عند مرض أحدهم تظل ساهرة ملتاعة لا يُغمض لها جفن؛ حتى يسترد عافيته ويعود لنضارته كأفضل مما قبل.

في كل مساء تُحضر الطشت النحاس وإبريق الماء الساخن، وتجلس أمام زيدان تغسل وتُدلك له قدميه بتفانٍ وإخلاص، أحبته كأنها خُلقت من أجل ذلك، حكت له كيف كانت في صباها تنتظر رؤيته كلما زار دارهم، أو لمحته صدفة في طريق.

نساء أبو طيب يُحببن كنساء مصر، لكنهنّ أبدًا لا يُفصحن.

كان يستمعُ لحديثها بدهشةٍ كبيرةٍ، ويرى خجلها ويشعر بصدقها، أيام طوال حتى هدأت روحه، واستطاع أن يُعاشرها معاشرة الأزواج.

لم يُعاند كثيرًا رغبتها في تغيير مكان صورة بدر، وجد وجاهة كبيرة في قبول ذلك، رؤية بدر وهي بجواره وفوق فراشه أمرٌ بالغُ الصعوبة، فقط لم يتخلص من تلك الأحلام التي تهاجمه من حين إلى حين، يرى بدر في منامِه ويستيقظ باكيًا، وقد حطمت الذكرى رُوحَه، وتمكن منه الحنينُ لها.

لولا وجود أحلام بجواره، لأصاب عقله الجنونُ، تظل تربتُ عليه وتضمه بحنان لصدرها، وترقيه كما تفعل مع الصغار، يخجلُ منها وهو يستوعبُ أنها تعرف سبب بكائِه بعد يقظته.

تهمسُ بشفقةٍ صادقةٍ، وهي تسندُ رأسَه إلى صدرها:

- ألف رحمة ونور عليها.. ربنا يصبرك يا سي زيدان

لا يوجد في الوجود مَن هي مثلها، وفي مثل طيب مشاعرها، لا تترك مشاعر الغيرة تتمكن منها، وتوجه تصرفاتها، مرة واحدة تجرأ وسألها بخجل عما تشعر به، وهي تعرف أن بدر ما زالت عالقة بذهنه:

- ألا يُضايقك ذلك؟

لتُجيبه، وهي مُستمرة في رُقيتِه، والربت على ظهره بعطف:

- كيف أتضايق، وقد وهبني الله زوجًا مثلك، وأربعة أبناء؟!

دون النظر لعينيها، يقولُ بصدق:

- يعلم الله أني أحببتك من كل قلبي، وأحمده ليل نهار عليكِ، فأنتِ أفضل الأرزاق وكبرى النعم.

تمسّدُ خدّه بكفها، وتقبل رأسه بحُب وتقدير، وتهمس بصوتها المُفعم بالطيبة والحنان:

- هَوِّن عليك يا أطيبَ الرجال، لا يُغار من ميت إلا أحمق مريض.

كلما أصابته مُصيبة، عوَّضه الله بخير لا يتوقعه، ولا يحسبه موجودًا، صدَقها الحديث وهو يُخبرها بأنها أفضلُ الأرزاق.. كأنها لوحة لا يتوقفُ عن رسمِها وتجميلها، كلما مَرّ يومٌ رأى فيها جمالًا لم يَرَه من قبل.

أصبحت ملامحُها الطيبة الهادئة مصدرَ راحتِه وهدوء نفسِه، الجلوسُ معها وسماعُ حديثها من أحب الأشياء إليه، لا يسمعُ منها غير كل ما هو طيب جميل، فَمُها الرقيق له اعوجَاج بسيط كلما تحدثت، يُزيدها حُسنًا وجمالًا.

لا تفوق بدر في الجَمال، لكن جمالها وعذوبة حديثها يصيبان عقله بخدر جميل، ويُشعرانه بأنه طفلٌ صغيرٌ، يسمعها صامتًا ويأنس بحديثها حتى يغلبه النعاس من فرط شعوره بالراحة والونس.

حدثه لبيب ابن عمه أكثر من مرة في أمر زواجه من ثانية؛ تنجب له أولادًا، ويكفي أحلام أنها تربي أولاد أخيها المرحوم.

لو أنه يُحدث شخصًا آخر غير زيدان لكان لحديثه صدى ورد فعل، لكن مع رجل مثله بقلب يفيض منه العطف والشهامة.. لم يجد غير الرفض التام، والسُّخرية منه أحيانًا.

أولاد بدر هم أولاده، ولا يشعر بغير ذلك ويكفيه ولده حاتم كي يشعر بالرضا والقناعة، الشعور بكرم الله يُغير النفوس وينزع منها شرها.

بعد ولادة منصور لم تعد عند نعمات رغبة في الاستمرار فيما تفعله مع المعلم منصور في الطاحونة، تشعر بالخزي من الاستمرار في ادّعاء السذاجة، والاستسلام لعبث المعلم، وهي مستندة إلى بطن الحمار.

كلما ذهبت صحبت معها إحدى بناتها أو الصبي بندق، الذي أصبح يعمل عندها، ويُساعدها في تجارتها وحمل الأجولة بدلًا منها.

لا تترك فرصة لمنصور لتكرار عبثه مرة أخرى، ورغم غضبه وضيقه لم يجد ما يفعله أكثر من التوقف عن مُساعدتها، والصرامة في الحسابات، وأخذ ثمن ما تحمله من عنده فوق حمارها.

لا يعني ذلك لها شيئًا، لم تعُد في حاجة لتأخير دفع الحساب وقد اتسعت تجارتها، وامتلأت دَرفة دولابها بالنقود، لكن كيف تقنع كلبًا سعرانًا بالتوقف عن أكل اللحم، وقبول وجبة من الأعشاب والخضار؟!

أجبر الست نادرة على الذهاب لها، وإخبارها بأنه غاضبٌ منها، وأنه ينتظر حضورها للطاحونة دون صبيها بندق، كلتا المرأتين في موقف لا تُحسد عليه، لولا فقر نادرة وخوفها من منصور لما قبلت أن تصبح مرسال خطيئة، وهي تعرف وترى وتفهم ما يفعلان.

نعمات تسمعُ وهي مكلومة، غارقة في بئر من العار، وتشعر بعريها لأول مرة أمام مُحدثتها، قضت ليلة سوداء لم يغمض لها جفن، وهي تشعر بعظيم مُصيبتها، الرجلُ فقد عقله، ومَن يعرف من يُخبره بعد نادرة؟.

أن يفعل ما يفعل أمامها تحت غطاء ولو ساذج ولا يقنع طفلًا يختلفُ كل الاختلاف عن أن يُصرح ويُرسلها تطلب عودتها بكل وضوح، لا

يُمكن أن تقبل العار والفضيحة، بعد أن أصبح لها ولد وطين وتجارة، ونقود تتزايد في دولابها.

انتظرت وقت الظهيرة بقلب ملتاع، قبل أن تضع طرحتها السوداء فوق رأسِها، وتذهبَ وحدها برفقة حِمارها إلى الطاحونة.

تهلل وجه منصور فور رؤيتِها تحضر وحدَها، ولوَت نادرة فمها بضيق وشماتة.

لم يعُد بحاجة للادعاء والمواربة، هب واقفًا، وجذبها من يدها لأول مرة خلف صحن الطاحونة خلف جلسة نادرة، كلُّ المرات السابقة كانت لا ترى وجهه، وتظل مُحدقة في الجوال فوق الحمار، هذه المرة هي بين ذراعيه، والأعين تلاقت، فقط خسرت نادرة فرصتها في رؤية ما يحدث.

ضمها إليه باشتياق واضح، وظل يعبثُ بجسدها بعشوائية ونفاد صبر، حتى استطاعت أن تفلت من بين ذِراعيه، وتبذل جهدًا كبيرًا أن تُخفي ما في ضميرها، وتخبره بصوتٍ هامسٍ زاده شهوة:

- أرجوك، لا أريدُ فِعلَ ذلك هنا مرة أخرى.

دَهشه قولها، ولم يستوعب ماذا تقصد، لتفطن لذلك، وتستطرد بنفس همسها محاولة إظهار رغبتها فيه، وهي تشير نحو نادرة توضح له رغبتها ألا تسمعهما:

- سأنتظرك بعد العشاء عند الترعة الكبيرة بجوار المُصلى القديم.

لم يكن يرى حاجة لفعل وقبول ذلك وهو في مكانه ومملكته الخاصة، لولا حركة أنثوية جريئة من يدها فوق ملابسه، كي تمنع عقله عن التفكير في الرفض.

ظلت طوالَ اليوم شاردة، هجر الدمُ وجهها، حتى إن حَماتها لاحظت ذلك وظنتها تعاني مرضًا ألمَّ بها.

جسدٌ بلا روح، قضت الساعات البطيئة حتى جاء موعد اللقاء، وفعلت ما يفعله الصغار، وتسللت من الدار دون أن تلحظها صُبح أو الصغار.

أحكمت ربط طرحتها، وأخفت بها وجهها، ووقفت في المكان مُرتعدة تكاد تفقد وعيها من شدة خوفها وارتباكها، حتى لمحت منصور يقترب منها بجسده البدين، وهو لا يزال لا يعرف كيف سيفعلان ذلك في هذا المكان، جذبته من ذراعه وهي تشير لداخل المُصلى.

تجمَّد الدم في عروقه لثوان، وهو يفطنُ أنها تطلبُ منه فعل الحرام بداخل المصلى، ورغب في الرفض والاعتراض، حتى أفهمته أنهما لن يدخلاها بل سيحتميان فقط في جدارها عن الأعين في الجزء المفتوح الذي يقفز منه الأطفال في الترعة.

الشهوة والرغبة كانتا كافيتين له كي يقبل، ويُقنع ضميره أن لا ضرر ولا حرمانية في ذلك، تحرك أمامها بخُطوات بطيئة، يتحسس طريقه في الظلام نحو الداخل، ولم يلحظها وهي تُمسك بحجر كبير في يدها.

لم يلحق أن يلتفت لها فور دخولهما لتنهال على رأسِه بالحَجر، وكانت ضرباتها بالغة القوة، بسبب خوفها وفزعها البالغ.

خشيتها ألا تنجح، أو تخيب ضربتها، فتصبح هي الضحية جعلتها تضربه بقوة، ففلقت جمجمته نصفين، بعد عدة ضربات متلاحقة.

خرّ جسدُه أمامها، وهو يُصدر حشرجة قوية، ويتطاير دمه، يُغطى وجهها ويختلط بدموع فزعها، بدانته الكبيرة أرهقتها بشدة، حتى نجحت في دفع جُثته، وجعله يسقط في الترعة.

فعلتها، وتخلصت من كابوسِه، وعادت مُهرولة نحو الدار حتى إنها سقطت على وجهها عدة مرات، من فرط فزعها، وتقاوم رغبة عارمة في الصراخ بكل قوتها.

لا تُصدق أنها قتلت الرجل، وألقت بجثته في الترعة، لكن لا شيء يُعادل أن يفضحها، وتصبح حديثَ أهل البلد، ويصفوها بالساقطة.

يومان وطفت جُثته وفسَّرت غيابه، الجنية قتلت المعلم منصور، هكذا قال الجميعُ دون شك في صحة ذلك.

طيبة أهل البلد وتصديقهم الأساطير أنقذا نعمات وأخفيا جريمتها، لم يشك أحدٌ في مقتل الرجل بأي سبب غير الجنية، جذبته والتهمته من رأسِه، ولفظته بعد أن انتهت منه.

توالت الأيام، ونعمات قد تخلصت من كل مخاوفِها، ومن ذِكرى تلك الليلة ولم يعُد يُزعجها غير تلك الكوابيس، وهي ترى منصور برأس مشقوق يُطاردها ويحاول خنقها.. لكن لا ضرر في ذلك، لا أحد يشاركها رؤية كوابيسها، ظلت مُؤمنة بداخلها أن الله سترها، ويسَّر لها فِعلتها لنصرتها، هو المُذنب المُعتدي ومستغل ضعفها ووحدتها.. حتى تفاجأت بزيارة من الست نادرة، وقد كانت قد توقفت عن الذهاب للطاحونة، وتركت ذلك لبندق يفعله وحدَه.

جلست نادرة أمامها، تنظر لها نظرات أعادت كل الفزع بداخلها من جديد، نظراتها تقولُ كل شيء، تخبرها بأنها تعلم أنها قاتلة المعلم، هكذا ظنت حتى تحدثت بعد أن أرهقت روحَهَا بصمتِها ونظراتها:

- الله يرحمه المعلم منصور، الجنية خلصت الناس من أذاه.

فطنت نعمات لقصدها، وأنها أتت فقط لتُقايضها على ما تعرف عن عَلاقتها القديمة به، قضاء أهون من كارثة، تنفست الصعداء، وادّعت الشفقة، وقالت:

- سامحه الله.

مسحت نادرة لعابها من حواف فمها بأصابعها وهي تبالغ في إظهار الضعف والسكينة:

- منذ رحيله وأصبحت الحياة صعبة مُرهقة، كان يجزلُ العطاء ويعطيني أكثر من أجرتي بكثير.

المقايضة واضحة وسهلة، المرأة تريد ثمن صمتها وحفظ السر، أمرٌ بسيط ويُحتمل وأهون بكثير من اكتشاف الجريمة، التجارة والبيع والشراء وهبت نعمات ذكاءً وفطنة لا يُستهان بهما.

اتجهت نحو دولابها، وعادت تحمل من النقود ما أدخل البهجة والرضا على نفس نادرة، وبدلوا حالها من نظرات التهديد والتخويف، إلى نظرات تودُّد وتملق.

ارتاحت نعمات بعد دقائق من الاضطراب والقلق، وشعرت بقوتها تعودُ إليها لتطلبَ منها بعد عودة الثقة والهدوء أن تترك الطاحونة، وتعمل معها مقابل أجر أكبر وعمل أيسر وأسهل.

كلها أمورٌ هينة في سبيل محو كل شيء قد يفضحُ جريمتها، ويُنذر بالخطر، تجارتها تتحمل ذلك، خصوصًا بعد أن قررت تأجير محل كبير في سوق الشارع الكبير، ومخزن خلفي لتخزين الأجولة.

البيعُ في الدار فقط أصبح أقل من طموحاتِها، ومما حصدته وجَنته من نقود، أصبحت نادرة ترتدي جلبابًا أسود فاقع اللون، ورغم سنها فإنها تعمل بحماس وإخلاص، وقد بدل حالها عطاءُ نعمات وسخاؤها.

لم تكن نعمات بخيلة تحب جمع المال من أجل كَنزه وجمعِه بلا هدف، تشتري أجمل الثياب لبنتيها، وتجلب لهما الحلوى الغالية من البندر كلما ذهبت بصحبة حماتها لزيارة نسيم في بيت طبيب المركز.

أنجبت نسيم توأمًا بعد وجدي، طفلتان مثل القمر ميرفت وجيهان، السعادة تسكن بيت طبيب المركز، عوّضه الله عن قلة ذريته بأبناء فايز، وصل سن المعاش، وترك عمله بالمستشفى، وتفرغ لأحفاده وساعات قليلة يقضيها في عيادته الخاصة مع فايز.

كلهم يحملونَ الحُب نحو نسيم، لم يجدوا منها غير كل ما هو طيب وجميل، لا تتأخر عن تلبية طلبات زوجها، ومُساعدته ورعاية والديه بكل رضا وإتقان، فقط تُلح عليه كل فترة أن يعيد بناء دار أبيها رفاعي، وتصبح منزلًا لهما كلما ذهبا إلى البلد.

وجاهتها كزوجة لطبيب مستشفى المركز تجعلها ترغب في ذلك، ولم تتوقف عن الإلحاح حتى فعلها فايز، وبنى البيت من جديد، وزاده بشراء قطعة أرض بجواره، ليُصبح بيتًا أنيقًا له حديقة.

تابعت نسيم بنفسِها زراعة شجرة توت في حديقته، حُبها لأبو طيب كامنٌ بداخلها لا يبرح قلبها أبدًا، ترتبط بالأماكن بقوة وشاعرية مُفرطة، لم تنسَ شرفة المنيل، ولم تنسَ جلستها تحت ظل شجرة التوت.

الولادة أكسبتها وزنًا زائدًا لم يزدها إلا حُسنًا وجمالًا، تليقُ في الملابس العصرية، كأنها مُعتادة عليها منذ طفولتها، لا يُمكن لمن يراها لأول مرة أن يتوقع أنها ريفية بسيطة من أبو طيب كانت يومًا تحمل البلاص فوق رأسِها وتجلبُ الماءَ من الترعة.

أمها هي الأقربُ إليها، شعرت بمدى فرحتِها بعد انتهاء بناء البيت من جديد، هي صاحبة الفضل الأول، لم تفرط فيه وتبعه، وظلت مُتمسكة به حتى يصبح لابنتها.

هدمُ البيت القديم هدمٌ لذكرى سقطتها القديمة، البيت الجديد له نوافذ مُحكمة، لا يقفز منها المجاذيب.

ساعدتها نسيم في تخطي وعكتها، ووجع البطن وجسدها يثور ويتمرد، ويتوقفُ عن المحيض.. طولُ الترك وقلة الاستعمال عجّلا بتمرد رَحِمِها، وتوقفه عن صُنع بويضاتِها الشهرية، ورغم أنها لم تبلغ الخمسين، فإنه حدث، وارتاحت لحدوثِه، تعرف كما يعرف باقي النساء في البلد أن انقطاع الطمث يعنى انعدام الرغبة وموتها بداخلها.

لن تهاجمها الأحلامُ مرة أخرى، ويلتحم جسدها بأجساد زوار تلك الأحلام، لا سلطة لها على أحلامها، وما يحدث بها، فقط يمكنها التحكم في نفسها وهي يقظة مفتوحة العَينين.

الكل يشهد لها بالطيبة والجدية، وحدها ربّت أولادها، وأصبح منهم الطبيب، ظلت تعمل بصبر وإخلاص طوال حياتها بين ماكينة الفرز، وبين رعاية الساقية وحفظ مواعيد الري والحفاظ على الدور والترتيب في سقي الأرض.

لم يرَ أحدٌ جانبها الضعيف وتلك المشاعر التي تجتاحها وتعتصر قلبها، كلٌّ منا يحتاج لمن يُشاركه أوقاته، ويحنو عليه ويُعيده لطفولته وبراءته الأولى.

سلوتها طوالَ اليوم في رعاية أحفادها، ومُعاونة نعمات كلما احتاجت، تشعر بالغربة عند زيارة بيت قنديل، ولا تجد راحتها مع زوجتِه رغم ما تُظهره من حُسن مُعاملة ورُقي استقبال.

قنديل ندهته نداهة مصر، نداهة مصر أشدُّ قسوةً من جنية الترعة، أهل البلد يتحدثون باستمرار وبفخر عنه كلما ظهرت صورته في الصحف.

حاذقٌ ومميزٌ، وصنع لنفسه مكانة كبيرة في عالم الجراحة، أخبار العمليات الصعبة التي يُجريها وأغلبها لأول مرة جعل أبو طيب ملء السمع والأبصار.

كلما ذكر اسم قنديل ذكر اسم أبو طيب مسقط رأسه، أهل البلد يفتخرون به رغم أنه يظل بالسنوات لا يطأ قدمه أرض البلد، لكن لا حيلة في ذلك والرجل دائمُ العمل والانشغال.

حتى عندما ذهبت له أمه تطلب منه حضور زفاف سعد وأخته نورا، ابني أخيه المرحوم حسن، أخبرها بخجل عدم قدرته على الحضور بسبب سفره للخارج؛ لحضور أحد المؤتمرات التي تعقبها دائمًا صورة له في الصحف، واكتفى بأن وضع بيدها قدرًا كبيرًا من النقود.

لم يبلغ سعد العشرين، ومع ذلك جهزت له جدته حُجرتين له ولعروسه بالدار، وساعده نبوي زوج أمه وأخواله، وبالتأكيد عمه بركة، وعمه قنديل في إتمام الزواج من نجاة ابنة صفتي، صاحب القهوة، الذي أصر على أن يجمع بين زواج سعد من نجاة بزواج ابنه سمير من نورا.

سعد ولد حليوة ، كما يقولون، ونجاة أجمل بنات البلد بلا نزاع، زواجهما مبهجٌ للجميع، نادرًا ما تحمل الوسادة اثنين ينعمان بالجَمال، بعكس وسادة نورا وسمير، ورثت نورا الحُسن والدلال والأنوثة الواضحة من أمها، بينما ورث سمير من أبيه نحافته وشدة سماره وفقر

الجمال بملامحه، رغم خفة دمه الكبيرة وحُلو حديثه وقدرته الفائقة على إعجاب كل مَن يتعامل معه.. هو ترزى ممتاز، تعلم مِهنته على يد أمهر ترزى في المركز، يقصد دكانه في الشارع الكبير كل أعيان البلد ليصنع لهم أفضل الثياب.

كانت ليلة ولا ألف ليلة وليلة، أصرَّ صفتي على أن يجعلها كذلك، وهو يزوج اثنين من أولاده دفعة واحدة، حُجرة العروسين سعد ونجاة مُلاصقة لحجرة جدته صُبح.

ظلت تضحك بخجل طوال الليل، وهي تسمعُ صوت نجاة وهتافها، ومحاولات هروبها من سعد بداخل حجرتها.. ذكرى الصبا تجتاحها، وتؤكد لها كذب ادعاءات أهل البلد من النساء، لا علاقة لانقطاع الطمث بخفوت الرغبة، كم ودَّت لو خرجت وَزَارتهن كلهن واحدة بعد واحدة، ولطمتهن على وجوههن، وطلبت منهن التوقف عن الكذب وتزييف الحقائق.

صوتُ نجاة أيقظ ما ظنت أنه ماتَ بداخلها، لم تحتج لزوار أحلامها، فقط تخلصت من ملابسها، وهربت تحت غطاء فراشها وأخفت جسدها ورأسها وظلت طوال الليل تؤكد كذب ادّعاء الفلاحات.

نعمات من هؤلاء النساء اللاتي يملكنَ أنوثة لها صوتٌ ورائحة، العِزُّ وراحة البال ورغدُ الحياة جعلت أنوثتها مُتجلية مُلهمة جاذبة للأعين

وفاتحة للشهية.. لها ظهرٌ مرسومٌ بين قوسين واضحين، جذب المعلم منصور من قبل مثلما فعل وجذب بندق.

الفتى فقير، شديدُ الفقر لا أملَ له في قرب الزواج، في نفس عمر سعد، وله من الإخوة أربعة ذكور وبنتان، يرعاهم بعد موت أبيه بسبب السل، وتهتك رئته.

عندما ترتدي نعمات جلبابها الأزرق المصنوع من القطيفة، يقبع في آخر ركن في الدكان يتابع ببصره حركة جسدها، وتموج أنوثتها وتبدل أماكن اللمعة فوق قماش جلبابها.

تلحظه الست نادرة، وتفهم بخبرتها اشتعال رغبته تجاه صاحبة المال والدكان، بقلبها بعضُ من الشر ذكرها بأفعال منصور، لو أن بندق فعل مثله، لاستطاعت أخذ الأكثر من نعمات، ثمن الصمت ورعاية ما يحدث.. واثقة من رغبة الفتى مِثل ثقتها من عدم اهتمام أو إدراك صاحبة الأنوثة، كلُّ ما عليها فِعله هو لفت نظرها نحوه، واستغلال حرمانها ووحدتها كي تضع الجاز بجوار الكبريت.

العَلاقة بين مصر والعراق لم تعُد على ما يُرام، وتأخرت عَودة المُسافرين، يخشون إذا عادوا فقدوا السفر من جديد، وضاعت عليهم دنانيرُ العِراق.

فترة طويلة وأيام عديدة لم تجد فرصة أو يصل عقلها لحل، حتى حلت المصادفة الأمر دون تدخل منها.

كانوا ثلاثتهم في المخزن الخلفي، وعلق حديد الميزان القباني بسيالة جلباب نعمات، دون أن تراه، وعند حركتها انقطع بالعَرض، من فوق ظهرها وتدلى كاشفًا جسدها وملابسها الداخلية.

تفاجأت وصاحت وهي تتوارى من نظرات بندق المُحدقة، وتحاول مد يدها لجذب الجلباب وإخفاء ما ظهر من جسدها، دق قلبُ نادرة من الفرح لما حدث، وقد حدث ما تتمنى وتنتظر، ادّعت الخضة، ووقفت خلف صاحبة الدكان تدّعي المساعدة، وهي تتعمد إعطاء فرصة أكبر لعَيني الفتى لينعم بالرؤية المجانية لجسد وليّة نعمته، ولكي تُشعر نعمات بما وقعت فيه، وتنفخ في النار الخامدة، وهتفت بها:

- مُصيبة كبيرة يا ست نعمات، لم يعد الجلباب يغطي شيئًا وجسدك كله واضح تمام الوضوح، لا بد من جلباب آخر.

ثم وجهت حديثها لبندق بجدية مصطنعة:

- لا تترك الست حتى أحضر لها جلبابًا آخر من البيت.

وقبل أن تغادر همست بأذن نعمات تزيد من وضع الجاز على النار:

- سأغلق باب المخزن، حتى لا يأتي أحد، ويرى ما أنتِ فيه، وسأترك بندق معك لحمايتك، هو منا، ولا يهم إن رأى شيئًا.. ليس كالغريب.

أغلقت الباب وتركتهما متجهة نحو دار نعمات بخُطوات هادئة متبطئة، وهي تمني نفسها بأن يصبح ما حدث هو بداية عصر منصور جديد يجلب لها الكثير من النقود، لا تعرف أن نعمات لم تعد نعمات الفلاحة الطيبة، زوجة بركة صاحب النية الطيبة والنفس القانعة.

مَن استطاعت حمل حجر وضرب رجل من الخلف وقتله، ليست بتلك البلاهة وضيق التفكير حتى لا تلحظ تغير وجه نادرة وتفهم تلميحاتها، صاحت بوجه بندق، وأمرته بالخروج والعودة للدكان.

ظنت أن الخطر مصدره المعلم منصور فقط، وأن نادرة لا خطر منها ولا خوف، حتى حدث ما حدث، وتأكدت من نيتها، وما يحمله عقلها، وإن كل عطاؤها معها لم يزدها إلا طمعًا وشرًا.

خيبة كبيرة ودهشة اعترتا وجه نادرة عند عودتها، ورؤية بندق يجلس أمام الدكان، يتابع حركة الشارع بشرود، الفتى لا يحمل عقله ما تحمله هي بعقلها وتود حدوثه، يكفيه ما رأى كي يسترجعه مئات المرات في مخيلته قبل نومه، دلفت للمخزن وأعطت الجلباب الجديد لنعمات وهي

تلجم لسانها، رغم أن الفضول يكاد يقتلها، وتود معرفة إن كان حدث شيء أو لا؟

نعمات تشعر بها، وتبالغ في إظهار الهدوء، وأن كل شيء عادي، ولا يوجد بين خباياه أي غرابة أو غموض، ظلت مُحتفظة بهدوئها، رغم غضبها المشتعل بداخلها حتى غادرت المكان وعادت لدارها.

الغضبُ ينهشُ فيها كوحش مفترس جائع، لم يتذوق الطعام منذ أسابيع، العجوز سوداءُ القلب تظنها امرأة ساقطة، تلهث وراء المتعة وتقدم جسدها لأي شخص، فقط بحثا عن المتعة.

لا يستوعب عقلها أن ما حدث مع منصور لم يكن غير زلة انجرفت معها وهي ضعيفة هشة، لم تتوقع حدوثها من رجل في عمر أبيها، وكانت تظن فيه الخير والرغبة في المساعدة.

كم من الخطايا نفعلها دون أن ندري، أو نفهم كيف فعلناها حتى نفيق ويصدمنا مُر واقع الفعل والحدوث؟

بنتاها هنية وابتهاج أصبحتا في سن الزواج، قريبًا يأتيهما العرسان، ولا أحد يُغريه نسب عليه غبار، بنتاها تعلمتا مثل بنات العمدة والأعيان، ولم يكتفيا بالابتدائية مثل نورا ابنة عمهما، وقريبًا ستصبح بهية مُعلمة في المدرسة كما توقع لها عمها قنديل وحثها على ذلك.

عند عَودة بركة لن تتركه يسافر مرة أخرى، لن يرعى المال والدكان خيرٌ منه، ولم يعودوا في حاجة لغربته، وقد عرفت النقود طريق دولابها.

التخلص من نادرة وشرها أصبح أمرًا حتميًا لا بد منه، ولا مناص من فِعله.

لن تقتلها، القتل ليس بهذه السهولة ولا تريد مزيدًا من الكوابيس من وجوه برءوس مشقوقة تطاردها طوال الليل، ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع كانت تمتطي حمارها، وتقوده لبلد بعد أبو طيب ببلدين.

الشيخ علوان عُرف عنه البراعة في الأعمال والسحر، ولا ضمير عنده يمنعه عن فعل كل ما هو مُؤذٍ طالما وجد الثمنَ، ورأى أمامه المال، حرصُها على سمعة بيتها أهم من أي شيء، ويبيح لها فعل كل شيء.

قصت عليه أمرها دون استفاضة، وطلبت منه مُساعدتها في التخلص من نادرة، أو على الأقل حمايتها من شرها وخطرها، وضعت أمامه منديلًا مستعملًا من مناديل نادرة، قد احتفظت به من قبل من أجل هذا المشوار.

الشيخ الطاعن في السن صاحب الملامح الثرية بكل أشكال القبح تسعده تلك الأمور، وتنفيذ مثل هذه الرغبات، طلبات الخير وفك المربوط وتسيير الحال ووقف الخلافات لا تدر عليه ما يُرضيه مثلما تفعل طلبات ورغبات الشر والأذى.

الحلُّ في صناعة عمل بالنزيف، هكذا قال وحاجباه يرقصان فوق جبينه من الفرحة والسعادة لما هو مُقدم على فعله، فقط كل المطلوب أن تتعرى أمامه نعمات، وتكشف عورتها، ويكتب الطلاسم على لحم ظهرها.

كانت تعرفُ ومستعدة لقبول أوامر الجن الكافر لإتمام العمل، وكانت تظن أن المقابل سيكونُ أكبر من ذلك، لذا لم تُفكر أو تتردد، وجلست أمامه على مؤخّرتها، بعد أن خلعت ملابسها، وتركت له سفح ظهرها لكتابة طلاسم الشر والأذى.

الأثمانُ الغالية مقبولة مُرضية إذا دُفعت مقابل ما يستحق.

بضعة أيام، وكانت الست نادرة حبيسة دارها مفزوعة مُرتعبة، وقد أصبحَ نزيفها واقعًا بشعًا لا تعرف له سببًا ولا علاجًا.

عشراتُ الوصفات البلدي دون جدوى، ونزيفها لا يتوقف، حتى إنها كانت تقول لجيرانها من النساء إنها تشعر وكأنها تتبول على نفسِها، من شدة غزارة النزيف.

صُبح تحمل لنادرة محبة، ولا تعرف شيئًا عن خبثها، وما بينها وبين زوجة ابنها، لم تترك نادرة إلا وقد أرغمتها على الذهاب معها للمركز كي يجد لها الطبيب فايز علاجًا شافيًا لوقف النزيف.

لكن ما حيلة العلم والطب أمام شر سفلي من صُنع جن كافر وبشر بلا ضمير؟!

استمر النزيف أيامًا وأسابيع، ولم يستطع جسد المرأة العجوز تحمل كل ذلك، وأصابه الوهن والضعف، وتحول وجهها للون الطين من شدة الشحوب، حتى جاء دورُها في نطق اسمِها من فوق سطح جامع أبو طيب، يُعلن موعد جنازتها.. إنا لله وإنا إليه راجعون.

8

دوار العمدة

تَمَسُّك الكسابية بالسلطة الأكبر بالبلد ومنصب العمدة لا يقبل نقاشًا، تخطى مأمون التسعين من عمره، وأصابه الدوار في صلاة العصر، ووقع وسط المُصلين، وعند رفع أذان المغرب، أعقبه الشيخ محفوظ بنبأ وفاته، ودُفن بعد صلاة العِشاء.. نادرًا ما يُدفن أحدٌ ليلًا، لكن الحر الشديد حال دون الانتظار للصباح.

اجتمع مجلسُ العائلة بعد انتهاء أيام التعازي، واتفقوا على تقديم عبد الحكيم ثاني أبناء المرحوم مأمون لشغل منصب أبيه، والاتفاق على ذلك مع مأمور المركز وأولي الأمر.

الابنُ الأكبر عزمي لا يهتم بالمنصب، وكل وقته لتجارتهم وطينهم ومواشيهم، عبد الحكيم الأكثر مُلائمة لمنصب العمدة، ومتابعة أحوال البلد، وفض النزاع في الخلافات، ومتابعة وتنفيذ طلبات المركز والمأمور.

لا شيء يليقُ بإعلان العمدة الجديد لجميع البلاد المجاورة أفضلُ من تزويج أحد أبنائه، ودعوة كل وجهاء المركز والبلاد المجاورة.

اختار عاطف ابن عبد الحكيم، بهية ابنة بركة ونعمات زوجة له، ووافق أبوه ووجده نَسبًا يليق بهم، مُعلمة معه في مدرسة البلد، وبينهما تقاربٌ وتفاهمٌ كبير، وتشبه أمها في امتلاكها أنوثة جلية واضحة وسمرة لطيفة تتماشى مع ملامحها المقبولة.

فَرِح بركة بنسب العمدة، واعتبره ملائمًا لكونه أحد وجهاء البلد وأعيانها، يملك تجارة كبيرة مثل أبناء العمدة، وأصبح عنده دارٌ جديدة بناها بعد أن عاد من غربته، وتفرغ للدكان ورعاية أفدنته.

لم يرث مأمون في بُخله أيٌّ من أبنائه، جعلها عبد الحكيم ليلة لا ينساها أحد، وجاء المُهنئون من كل مكان؛ بعد أن انتشر خبر حضور الطبيب قنديل المشهور، الذي تملأ صوره الصحف، منذ أن أجرى جراحة كبيرة مُعقدة لفنان شهير أنقذته من موت محقق.

وكما تجري العادة معظم الوقت، لفتت ابتهاج أخت العروس، نظر محمود ابن الضابط صادق، عم العريس.. ولم يمر شهرٌ، وقد طلب يدها وأصبح صهرًا جديدًا لبركة، فكثيرًا ما يحدث زواج الأخوات في بيت واحد في أبو طيب.

الحياة لا تتوقف عن الابتسام لصُبح وأولادها وأحفادها، ورغم ذلك لا تجد سلوتها إلا تحت شجرة التوت، زَرعة عمارة الطيب كما تُحب وصفها.

كما فعلت مع الجميع، تجلس في الساقية ترعى وتلاعب أبناء حفيديها سعد ونورا، أولاد سعد ونجاة يُحبونها حبًا بالغًا جعلهم ينادونها بأمة صُبح، وينادون أمهم باسمها مجردًا، تحمل بقلبها حبًا كبيرًا لا نهاية لهم، خصوصًا حسن، الذي سماه سعد على اسم والده الشهيد.

سباق الصبية في السباحة وسرعة عبور الترعة الكبيرة أفضلُ الأشياء وأحبها لقلب حاتم ابن زيدان، لا يسبقه أحد ولا يصل للبر الثاني قبله مخلوق، ويجلس بعدها يلتف الكل من حوله يطالبونه بالغناء وسماع صوته، لا يملك جمالَ وعذوبة الصوت شخصٌ مثله في البلد، اعتاد سماعَ الست وعبد الوهاب وفريد بفضل أبيه.

ورث حُب المَغنى والطرب من زيدان، كما ورث منه الوسامة وحلو الكلام، حُب أحلام زوجة أبيه له لا يُقاس، ولا يستطيع أحد وصفه من فرط صدقه وخصوصيته.

لا يعرف عن أمه بدر غير صورة لها مُعلقة على أحد جدران بيتهم، وبعض القصص عنها يرويها له أبوه بشجن بالغ.. أما أمه ومَن ربته حتى أصبح صبيًا محبوبًا.. فهي أحلام، لا تكف أبدًا عن رعايته، وبذل مجهود مُضنٍ لإبقائه بالدار والمذاكرة، هو زرعتها الأهم، وترجو أن يُصبح ذا شأن تفتخر به وبتربيته.. وقد كان لها ما أرادت، وضمن مكانه في كلية

الهندسة، وذبح زيدان عجلًا ضخمًا من شدة فرحته، ووليمة كبيرة للوجهاء، ووزع منها على مجاذيب المقام، ودراويشه، وزُوَّاره.

اغتيالُ السادات أثار غضب وحُزن كل أهل أبو طيب، لكنه لم يحظَ بجنازة رمزية مثلما فعلوا مع جَمال، سمير ابن المعلم صفتي هو أكثر من حزن عليه، واعتبر اغتياله مُصيبة وقعت فوق رأسه.

كان يرى أن الرجل بأفكاره وتفتحه يتيح لهم التنعم بالتجارة وخيرها، أكثر من أي شخص آخر، بفضله وبفضل سياساته ترك مهنة الترزي، وأصبح يتاجر في كل شيء، وأصبح عنده دكانٌ كبيرٌ في الشارع الكبير، لبيع الملابس والخردوات والأجهزة، وكل شيء يستطيع جلبه من بورسعيد، حتى تلك الأشياء الخاصة يبيعها ويحصلُ عليها بسهولة، بعد إخفائها وسط بضاعته.

بعد أن كان بالبلد مسجد أبو طيب فقط يتوسطها، أصبح في كل مربع مسجدٌ، بنى أبناء العمدة الراحل مأمون مسجدًا على روح والدهم، حتى دسوقي صاحب القلب الأسود البغيض، بنى مسجدًا، وسماه مسجد أولاد سلامة.

كل العائلات الكبيرة سَعَت لبناء مسجد، وألحقت به دارًا خاصة للتعزية، تعددت البيوت والشوارع والحواري، وتبرع زيدان بقطعة من أرضه لبناء مدرسة إعدادية، لخدمة أبناء البلد.

قهوة صفتي بعد أن أصابته الشيخوخة أصبحت تحت رعاية ابنه حجازي، رجل صاحب مزاج، ويعتبر بيع الحشيش خدمة يُقدمها لأهل البلد، وبعد أن اشترى جهاز فيديو وتلفازًا ضخمًا، أصبح رواد القهوة أضعافًا.

أغلبُ أهل البلد استهوتهم زراعة البرسيم؛ لسهولته وقلة تعبه ومجهوده، ووقعوا في براثن الفراغ أغلب الوقت، ولا شيء يفعلونه أفضل من الجلوس على قهوة صفتي، وفتح أفواههم وهم يشاهدون الأفلام الأجنبية، ويخرج بعدها الصبية يقلدون حركات بروسلي، وينتهون دومًا إلى العراك الحقيقي بعد تكرار الضربات الخاطئة.

ابتلعت مصلحة السكة الحديد عددًا كبيرًا منهم، والباقي وجد وظيفته في مصانع النسيج في المحافظة، أو الحديد والصلب، أصبحت الفلاحة والزراعة جزءًا من حياتهم، بعكس آبائهم كانت الأرض هي كل حياتهم.

أهل أبو طيب يَرثونَ المهن من آبائهم، كما يرثون منهم السعد أو الشقاء، دخل وجدي كلية الطب، ليصبح طبيبًا مثل أبيه وجده الراحل، منصور ابن بركة يذهب للمدرسة الإعدادية في المركز، ولا يفوت يومًا دون أن يزور بيت عمته نسيم.

حنان وعطف نعمات المبالغ فيهما تجاهه خلقا منه فتى مرهفَ الحس، رقيق القلب والمشاعر، كلما زار عمته بحث في مكتبتها عن رواية جديدة يستعيرها ليقرأها، حُب نسيم قراءة الشعر والروايات تسلل لروحه وعقله، كما تسلل الحب لقلبه تجاه ميرفت ابنة عمته، التي ورثت من أمها كل حسناتها، وروحها الخفيفة الحلوة، وفاقتها في الجَمال.

حبٌ صامتٌ سكنَ صدره، ولم يفعل شيئًا أكثر من الرضا بقليل حديث، وبعض النظرات، أحبَّ الشعر والكتابة، وأصبح شاعر المدرسة، برعاية مُعلمه المُفضل- والفاضل- الأستاذ فتحي شعيرة، مدرس اللغة العربية، الذي شجعه، وحثه على الاستمرار في الكتابة، وتطوير نفسه.

الحُب يُهذب النفس، ويُلهم الروحَ الإبداع، حبه لميرفت خلق بداخله رغبة كبيرة في السرد والتعبير، كلما قرأ رواية ليوسف السباعي أو إحسان عبد القدوس لمح وجهَهَا بين السطور.

بعد زواج بهية وابتهاج، لم يعد يشغل نعمات شيء غير رعاية منصور، والجلوس بجواره بلا ملل أو ضيق طوال الوقت، كل شيء من حولها طيبٌ وهادئ، فيما عدا تلك الكوابيس التي لا تتركها ليلة، دون أن تخنق قلبها، وتوقظها مفزوعة مرتعبة من نومها.

إن لم يَزرها المعلم منصور برأسه المشقوق، زارتها الست نادرة، وهي مُلطخة بالدم، ويخرج من فمِها وعَينيها بغزارة مُفزعة.

لا تَكُف عن زيارة المقام، وتوزيع الخبز والنابت، وأحيانًا اللحم والأرز، ومع ذلك لا تفارقها الكوابيس، الذنب جاثمٌ على روحها، لا يقبل منها توبة ولا يَمُن عليها بغفران.

عجلة الزمن لا تتوقف عن الدوران.. شبابُ أبو طيب، أمس، شيوخُها اليومَ وكبارُها، كثر عدد الأحفاد وأصبحت صُبح لا ترتاح ساعة دون أن تقوم بجولات لا تنقطع لزيارتهم، ولا شيء أفضل من حبات التوت، تحملها لهم بفرحة مع كل موسم.

دخلت الكهرباء البلد، وأصبح أغلب البيوت به راديو أو تلفاز، ومع ذلك يظل حُب الصغار للتوت وترك صبغته على أفواههم أحبَّ الأشياء لهم.

المنظر أمام صُبح وهي جالسة تحت ظل الشجرة، لم يعد كما كان، كانت تستطيع رؤية الترعة الكبيرة من مكانها ومئذنة مسجد أبو طيب، الآن اختفى كلُّ ذلك وراء البيوت الجديدة المتلاحمة، ولم تعد ترى شيئًا غير الطريق الرئيسية لمدخل البلد، ومساحة تُدرك حدودها من الزرع الأخضر.

كسا الشيب رأسَها تحت طرحتها، ولم تُعارض نجاة زوجة سعد في استعمال الحنة البلدي، لا أحد يعيب الحنة في أبو طيب، ولن يرى شعرها إلا المقربون، المرأة تظل مرأة حتى بعد أن تتخطى الستين.. والتمسك بالصبا والجَمال شعورٌ لا يموت بداخل أنثى مهما حدث.

الحياة في دوار العمدة غير الحياة في دار صُبح، أو دار بركة الطيب الكريم، دوار كبير مُتعدد الجدران، كأنه عدة بيوت متلاصقة، أمامه حوشٌ كبيرٌ به نخلتان، وشجرة لبلاب عملاقة، يجلس تحتها خفر العمدة يحتمونَ في ظلها من حر أيام الصيف.

رغم امتلاء الدوار بالزوجات والأبناء، فإن الخادمات من بنات الفلاحين الفقراء لهنّ مكان وغاية في نفس عبد الحكيم، الخدم جزءٌ من وجاهته وهيبته وتميُّزه عن غيره.

الست فايقة تعجن العجين في الصباح، وتجلس أمام لهيب الفرن بالساعات، حتى تنتهي من تحضير عمودين من الخبز الرحّالي العريض، والبنات في المطبخ يساعدن نساء الدار، ويُحضِّرن الطلبات من السوق، ويجهزن طلبات ضيوف العمدة التي لا تنتهي.

لكل زوجين ما يشبه الجناح الخاص، حجرتان أو ثلاث، بالإضافة إلى قاعة استقبال، بهية وزوجها يذهبان للمدرسة في الصباح الباكر، ويعودان معًا، وابتهاج تظل طوال اليوم تساعد نساء الدار، وتنتظر عودة

زوجها من عمله في الجمعية الزراعية بالمركز، لا صوت يعلو صوت العمدة، ولا أحدَ يعصي أوامره، ولا يوجد مُجادلٌ له في أي طلب، يحكم الدوار بصرامة لا تخلو من عطف، كما يحكم البلد بجدية وحزم.

مأمون ترك ثروة طائلة لم يحظَ بمثلها أيٌّ من أهل البلد، كل ذلك جعل الحياة في الدوار مترفة، لا تعرف الجفاف أو الشح، أو أي ملمح من ملامح النقص، الأحفاد كلٌّ منهم في حياته، ولا يشغلهم أمر البلد ومشاكلها.

بعد العودة من عمله في المركز يجلس محمود في شرفة جناحه، يدخن النرجيلة، ولا يتوقف عن طلب أكواب الشاي، أراد أبوه صادق أن يُلحقه بالجيش مثله، ويصبح ضابطًا ذا شأن، لكن ضعف لياقته حالت دون ذلك.

ناهد إحدى الخادمات وشقيقة بندق الوسطى، هي أول من تهرول لتلبية طلبه وعمل الشاي، هي أجمل من يَعملن في الدوار، بل هي أجمل بنات البلد على الإطلاق دون أدنى شك، لا تحمل ملامح خاصة مميزة تؤكد جمالها، لكنها تملك تلك الميوعة الصانعة لجاذبية لا يقاومها أحد، لها عودٌ طويلٌ، وعينان كأنهما بئران يغرق في سِحرهما كلُّ من ينظر إليهما.. فارعة الطول بشكل يميزها عن الجميع، ورغم طولها المُمَيز فإنها تمشي

بطريقة متمايلة، كما لو أنها دون عمود فقري صلب يقلل من تراقص خصرها كلما تحركت أقل حركة.

محمود لا يتوقفُ عن رَص كراسي المعسل، والمناداة طالبًا الشاي، يطلبه كل ساعة، وإن لم يكن يرغب فيه ويُلقيه من شرفته بيده، فقط يريد رؤية ناهد، والتنعم بالتحديق في دلال مشيتها.

اختار ابتهاج بنفسه، دون توجيه أو تزكية من أحد، لكن ما قيمة الجبن إذا وُجِدَ العسل!، العقل يختار الزوجة الملائمة ذات الحسب والنسب، والأصل الطيب، أما القلب فيختارُ من النساء أجملهن وأكثرهن دلالًا.

بمجرد أن وضعت ناهد قدمها بالدوار، لم يعد لمحمود هَمّ أكبر من رصدها ومتابعتها، ويثور أيما ثورة إذا طلب شيئًا، وجاءت به بنت أخرى غير ناهد.

ابتهاج تحملُ طيبة أبيها بركة، ولا تعي شيئًا من التغيير الذي طرأ على زوجها، دءوب لا تهرب مثل بهية من أعمال وأعباء الدوار، وتجالس حماتها أغلب الوقت؛ هربًا من رائحة دخان النرجيلة التي تلهب صدرها، وتصيبها بالسعال والاختناق.. لم ترث ذكاء ونباهة نعمات، ولا جرأتها، ولا أنوثتها، هي فقط مريحة للعين دون فتنة أو إثارة، بعكس ناهد التي

تملك أطنانًا من الفتنة، تفيض منها كلما همّت، مجرد هَمّ، بالحركة أو الكلام.

ناهد تحمل بقلبها كراهية كامنة مختبئة بين ضلوعها، لكل أهل نعمات وأولادها، لا تنسى لها أنها طردت شقيقها بندق شر طردة بلا سبب، وقالت للجميع إنه سارقٌ، خان الأمانة، وسرق الدكان.

لم يُصدّقه أحدٌ، أو يسعَ أقل سعي للتأكد من سرقته، ترك عمله ولم يجد بديلًا غير أعمال الفاعل في البناء، وبعد الراحة والظل كُتب عليه الشقاء تحت لهيب الشمس.

فعلت نعمات ذلك وقت فزعها، عقب موت نادرة، وتيقنها أنها مَن قتلتها بعد أن عملت لها عملًا بالنزيف، لم تقبل رؤية بندق أمامها، وتذكيرها بفعلتها، ولشعورها بأنه مذنبٌ آثم ضليع في ما وصلت إليه.

طردته بفضيحة ونذالة، كأنها تنتقم منه على ذنب لم يرتكبه، لكن ما حيلة الفقراء أمام وحشية الأغنياء أصحاب المال؟!

كلما رأت ناهد النعيم والعز اللذين تعيش فيهما بنتا نعمات في دوار العمدة، تمكن منها الحقدُ والغلُ، وهي تتذكر تلك الليالي، ودارهم بلا قطعة خبز، ولا يجدون شيئًا غير شرب الماء لسد جوعهم، وملء بطونهم الخاوية.

الضعفُ والحرمانُ والمعاناة تهبُ مَن ذاقها فطنة وذكاءً وقدرة أكبر على الفهم والإدراك، تفهم نظرات محمود، وتقرؤها بمشاعر أنثى تعرف أنها مختلفة ولافتة للأنظار، تبالغ في دلالها مَعه، وأمامه، وتتعمد جذبَ جلبابها حول خصرها، مُدّعية الهمّة والنشاط كلما مرت من أمامه، لتخبره بدهاء الأنثى أنها تملك ما لا تملكه ابتهاج.

كمَن تصنع القهوة على نار هادئة جعلت تعلق محمود بها يحدث بطيئًا هادئًا، لكنه أكثر عمقًا وتأثيرًا، لم تبادله نظرة أو تشعره بأنها تدرك تعلقه وافتتانه بها، تبالغ في تقديره واحترامه، وتتحاشى النظر في عينيه، وكلما تحدثت ختمت كلامها بالعبارة نفسها: من عيني يا سيدي الأستاذ محمود.

يحترقُ اللحمُ إن ظلَّ وقتًا أطول من اللازم فوق النار، اقترب محمود من الجنون، وهو يشم رائحة الشواء كل يوم وكل ساعة، ولا يجد فرصة للتذوق أو الالتهام، أصبح كل يوم يرسل لحجازي، ابن صفتي، يطلب قرش حشيش من الفاخر، فحاجته للسطل تزداد كل يوم.

يتقلبُ في فراشه فوقَ جسد ابتهاج مُغمض العينين، وبعقله صورة ناهد، ويستحضر حركاتها ولفتاتها، وموسيقى تراقص خصرها كلما رآها من الخلف، فقط لم يخطئ وينطق اسمها وهو يستعرض ذكورته كل ليلة

بإصرار دون انقطاع بين ساقي ابتهاج، التي لا تعترض أو ترفض أو تدرك أن في الأمر شيئًا غريبًا.

تزوج بندق من فقيرة مثله، كما فعل اثنان من إخوته الذكور، بينما هجر اثنان البلد بحثًا عن الرزق، والأخت الكبرى تزوجت من صاحب عربة النيشان بعد أن رآها أيام المولد، وارتحلت معه يطوفان الموالد في كل بلد ومحافظة، يدفعان العربة ويجران أطفالهما خلفهما.

فقط بقيت ناهد ولم تتزوج، لم يتركها فقير من فقراء أبو طيب إلا وطلب يدها من بندق، فوزٌ عظيم لَمَن يتزوجها، جميلة الجميلات ومتاحة لأيديهم بفضل فقرها ودارهم التي ما زالت من الطين من طابق واحد وسقف من القش والجريد، الجَمال وحدَه لا يكفي ولا يعوض فقرًا، يظل الفقير بلا ثمن حتى وإن تخطى كل حدود الفتنة والجمال، لكنها صمدت ورفضت الزواج من فقير مُعدم مثلها تدفع معه عربة نيشان أو مرجيحة أو تشاركه العمل باليومية في أحد حقول الأغنياء ووجهاء البلد.

تعرف أنها جميلة، بل هي الأجمل وأجمل من كل بنات الوجهاء وأصحاب الأرض والطين، لا يستحقها فقيرٌ رائحة فمه كريهة من أكل البصل والخبز الجاف، تستحق حياة تليق بجَمالها، بكل يقين لم يهبها الله كل هذا الجَمال دون سبب، أو لكي تصبح فقط وجبة شهية لأحد الفقراء.

لو أن القدرَ وهبَها الجمال فقط لأصبحت حياتها أكثر هدوءًا وراحة، لكنه زادها بعقل يقظ يُدرك كل التفاصيل، وعِزّة نفس ترهق نفسها، وتزيد ألمها، وتضاعف شعورها بالانكسار.

عندما يناديها أحدهم ببنت زغلول الأعرج كناية عن والدها، تتذكر وضعها ومكانتها حتى وإن ارتدت ملابس الهوانم مما تجود بها سيدات الدوار، عندما ترتدي تلك الجلاليب يظهر الفرق بينها وبينهن، هُن يَلبسن الملابس الغالية لتُكسبهن شيئًا من الجَمال، أما هي فإن ارتدت القديم المتهالك أكسبته جمالًا وجعلته يسر الناظرين.

فاجأها العمدة عبد الحكيم بأن أرسلَ لبندق يطلب منه تزويجها من عفيفي الخفير، ومَن هو بندق كي يرفض للعمدة طلبًا أو يجادله فيه؟

أخبرها بالأمر وهي تسمع منهارة، غارقة في الحُزن والتعاسة، لا يمكن أن تكون هذه هي النهاية، تتزوج من خفير كلُّ مهمته حراسة حظيرة مواشي العمدة.

جاء الوقتُ المناسب لاستعمال جَمالها وفتنتها لإنقاذ نفسها، محمود متيم بها يتمناها، بلا شك إذا طلبت منه المساعدة وتخليصها من تلك الزيجة لن يتردد وسينجح في ذلك، حملت له الشاي المحلى بالقرنفل، وتركت خصلة من شعرها الأسود الناعم تتدلى من جانب طرحتها،

ووقفت أمامه مضطربة خجلة وهي تقص عليه الأمر، وتطلب منه مساعدتها في التخلص من رغبة عفيفي.

تفحصها بنهم وإعجاب ورأت في عينيه لمعة لأول مرة، كأنه سمعَ أجملَ وأسعد الأخبار، قام مِن جلسته واقترب منها بعد أن تفحص باب الشرفة البعيد، وتأكد من أن لا أحد يراهما ويسمعهما، واقترب منها حتى شعرت بأنه على وشك ضمها لصدره، وهو يتحدث باضطراب وتلعثم:

- خبرٌ سعيدٌ وزواجٌ يضمن لي بقاءك في الدوار.

صدَمَها حديثه، وخيّب رجاءها، وقبل أن تفتح فمها كانت يده تتحرك فوق جنبها يلمس جسدها لأول مرة، ورجفة جسده تظهر وتتضح، ويهمسُ بصوت مملوء بالرغبة:

- تزوّجيه، وسأشتري لكِ كردان ذهب، وشوارًا من المركز.

قرأت ما في رأسِه، وفهمت مقصده، النذل يريد أن تصبح رفيقته، بعد أن تتزوج من خفيرهم، ويتأكد وجودها بالدوار، شرودُها وصدمتها جعلاه يظن صمتها قبولًا، ويقترب منها، ويضمها بقوة، ويحاول تقبيلها، وأعمته شهوته عن فتح الباب، وقدوم زوجته ابتهاج وحماته نعمات.

دائمًا الأقدار السيئة السوداء تتشابك وتجر بعضها بعضًا، نعمات التي لا تزور الدوار إلا كل حين وحين، تأتي وترى زوج ابنتها يضم خادمة

البيت، كل مشاهد الماضي تتجمع في عقلها، المعلم منصور وهو ينهش لحمها في الطاحونة، وخطة نادرة الخبيثة ونظرات بندق واشتهاؤه لها، كل ذلك رأته في محمود، وهو بجسد ملتصق يقبل ناهد لتصيح بلا تفكير:

- ماذا تفعلي هنا يا.......؟

صوتها صنع تلك الجلبة التي أكدت المصيبة والفضيحة، كل أهل الدوار وصلهم من صيحات وولولة نعمات، ومن بكاء ابتهاج، أن الخادمة عاهرة لعوبٌ، وكانت تحاول إغواء الزوج الطيب الضحية.

وقبل أن تتجمع نساءُ الدوار ويفتكن بالمكلومة المصدومة التي فقدت كل قدرة على الفهم والاستيعاب كان العمدة بنفسه يتدخل ويجذبها من ذراعها، ويلطمها على وجهها بضربة جرحت فمَها، وهو يصيح فيها بغضب:

- بره يا بنت الـ.....

وقوع الظلم في أبو طيب أسهلُ مئات المرات من تحقق العدل ونُصرة الحق، انتشر الخبرُ بسرعة البرق، ولا حديث أو همس إلا عن ناهد، الفتاة اللعوب التي حاولت إغواء الرجل الشهم الطيب، عشرات الصفعات والركلات من بندق، جعلت الجروح والندبات تغطي وجه وجسد ناهد، لكنها أبدًا لم تعادل ما أصاب قلبها من ندبة كئيبة.

لو لم تكن خادمة فقيرة لا ظهر لها أو سَند ما طالتها الفضيحة، ولا تجرأت نعمات على ضربها، وجذبها من شَعرها وجرها في وسط الدوار.

يستطيع المرء الحياة مع الأفاعي والحيات، ولا يتحملها مع العار والفضيحة.

القطار دائمًا يحمل الحل وطوق النجاة، في عتمة الليل غطت وجهها ورأسها بطرحتها السوداء، وحملت بُقجتها الصغيرة وقررت الرحيل، في الهروب أحيانًا فرصة للنجاة.

لم يكن الأمرُ سهلًا على محمود لإقناع ابتهاج ببراءته، وقد رأته بعَينيها يضم خادمتهم بين ذراعيه، لكنها تحمل من الطيبة ما جعلها تصمت، وتنفذ وصية أمها بأن لا تترك بيتها يخرب من أجل خادمة.

البكاء لا يضمد الجراح، رتابة اهتزاز القطار وجسدها المنهك جعلاها تغرق في النوم، وكأنها بنومها تهرب من المجهول الذي ينتظرها، لا تعرف إلى أين تذهب، وما وجهتها؟، كل ما تعرفه أنها لم يعد بمقدورها البقاء بالبلد.. أي مكان آخر هو جنة بالمقارنة بأبو طيب.

قليلٌ مَن سمع القصة، وشعر بالتعاطف معها، الأسهل دائمًا على النفوس تصديق الروايات كما تصلهم، فتاة فقيرة طمعت في رجل غني متزوج، وأرادت إغواءه لتنهل من خيره وماله.

وصل القطار إلى محطة المجهول، واستيقظت ناهد على واقع مصيرها، وتركت القدر يفعل بها ما يشاء، ماذا سيُصيبها أكثر مما حدث، مَشت ومَشت، وقررت الاستسلام وترك نفسها لجوف المجهول يبتلعها دون مقاومة منها أو تفكير.

أول ما جذب حاتم بعد أن التحق بالجامعة المسرح، فهو يشبه الواحة الخضراء ذات النسيم العليل، مقارنة بقاعات المواد الهندسية، وصرامة الحسابات الدقيقة، والخطوط معلومة البداية والنهاية، حلاوة صوته أوجدت له مكانًا في فريق الجامعة، لا أحد من كل الكليات له صوت مثل صوته، عندما يقف على المسرح ويغني، يتجمع الطلبة حوله ويطالبونه بالمزيد والإعادة.. لا عجب أن يحصد جائزة أحسن صوت على مستوى كل الجامعات.

لو أن أباه شخصٌ آخر غير زيدان لكانت مصيبة لا يعرف أحد عواقبها، لكن زيدان غير الجميع، رقة قلبه وطيب روحه جعلاه يتقبل ما يحدث بترحيب وسعادة، الولد لم يُقصر في دراسته، ولم يقف جَمال صوته مانعًا أمام مستقبله.

بعد زواج أولاد لطفي لم يبقَ في الدار غير زيدان وأحلام، تجلس شاردة وحيدة وقلبها هناك مع حاتم في غربته في القاهرة، أيامٌ متتالية تلح عليه أن تذهب وتجلس معه وترعاه، وقد كان لها ما أرادت.

استأجر لهما شقة بدل من سكن الجامعة، وعاشت معه قريرة العين، مرتاحة القلب، ولم يفوت زيدان يومين أو ثلاثة إلا وذهب إليهما، حتى أصبح مكوثه معهما هو الأصل والأساس.

لم يعد قنديل وحدَه من أبناء أبو طيب من تحتل صوره صفحات الجرائد والمجلات، أصبحت صورة حاتم زيدان المطرب الصاعد لها حظ أوفر وأكبر، بعد أن أصدر ألبومه الأول وأصبح له جمهور ومتابعون.

اسم أبو طيب أصبح معلومًا معروفًا، العمدة عبد الحكيم يجلس تحت قبة مجلس النواب عن مقعد العمال والفلاحين، وقنديل أصبح ضيف البرامج التلفزيونية المهمة وزادت شهرته، وحاتم أصبح من المطربين المعروفين الناجحين، ولم يمتهن مهنة الهندسة بعد أن تخرج بتفوق.

أصبحت صُبح أم الطبيب الشهير، وتوقفت عن فرز اللبن، وأهدت ماكينة الفرز لإحدى الفلاحات، لكنها لم تترك جلستها تحت شجرة التوت، لم تعد الساقية تدور، ولم يعد للثور المغمض مكانٌ فيها، لكنها ظلت كما هي، فقط مهجورة تحطمت قللها، وصدأ حديدها، وامتلأت بئرها بالقش والحطب والتراب.

ما زال الجلوس تحت الشجرة هو أقرب شيء تفعله لقلبها، ورغم أتربة الطريق بعد عبور كل سيارة أو دراجة بخارية، فإن عطف ظل الشجرة لم يتغير أو يتبدل.

بعض الأماكن نراه بقلوبنا لا بأعيننا، هكذا ترى صُبح الساقية وجلسة الشجرة، زرعة عمارة وما تبقى لها من ذكريات، يُشاركها منصور جلستها، وهو مُمسكٌ أحد كتبه ورواياته.

للساقية مكانٌ في قلبه مثل جدته، أنهى الثانوية وقرر دخول كلية الآداب، يحب الشعر والكتابة ولا يحب ترك القلم من يديه، يحب ابنة عمته حبًا صامتًا، سنة تلو الأخرى ولا يجد بقلبه شجاعة الاعتراف بما يجيش به صدره، لا يعرف سببًا لصمته، لكنه كلما وقف أمامها شعر بفارق كبير بينهما يُلجم لسانه ويخرس مشاعره.

الفتاة عصرية أكثر مما يجب، وتحب المرح بشكل كبير، ولا تشبه أمها في هدوئها ورقتها، الفارق بينهما كالفارق بين نغمات البيانو ودقات الطبول.

شعوره بالغربة يزيد يومًا بعد يوم، ولا يشعر بانتماء لشيء غير الساقية وظل شجرة التوت، أمه نعمات رغم جهلها لم تتقبل اختياره لكليته بسهولة، كانت تريده أن يصبح طبيبًا أو مهندسًا أو ضابطًا مثل حما أخته، وشقيق زوجها الأصغر.

تهمها المظاهر أكثر من أي شيء، وتبالغ في إظهار العز والثراء، الذهب يغطي ذراعيها وصدرها، بعد أن اتسعت تجارة بركة، وأصبح يمتلك أكثر من سيارة، وأكثر من مخزن، وأطنانًا من الحبوب والدقيق.

لا تكف عن زيارة دوار العمدة ومتابعة أحوال بناتها، هي حماة من النوع المراقب المتفحص، لا تترك شيئًا دون تدخل ووصاية، ولا تتوقف عن إعطاء التعليمات والتوجيهات لبناتها وأحفادها، تطمئن لحياة بهية وعاطف، وتحمل بقلبها القلق الدائم نحو ابتهاج، وهي تعرف أن زوجها محمود من هذا النوع ضعيف الإرادة أمام شهوته، لكن بفضل نصائحها الثمينة استطاعت أن تجعل بعد مجهود كبير من ابتهاج امرأة تستطيع جمح نزوات زوجها، هكذا اعتقدوا، وهكذا أقنعهم سلوك محمود.

9

الزلــزال

ارتفع صوتُ الصراخ من كل مكان، اختلطت الأصوات بفزع بعد أن تراقصت الحوائط، وهرول الجميع بلا تفكير ظنًا منه أن بيته ينهار ويقع فوق رأسه.

تلك اللحظة التي اكتشفت فيها كل نساء البلد أن قمصان النوم العارية التي يبيعها سمير، ابن صفتي، في كل بيوت أبو طيب.

الفزع والتشبث بالحياة لم يتركا فرصة لستر عورة، أو الحياء من ظهور الأجساد شبه عارية، ثلاثون ثانية من اهتزاز الأرض كانت كافية أن يترك كل شخص داره، ويهرول للخارج خوفًا من الموت.

تلاقت الأعين، وهدأت النفوس بعد أن توقفت الأرض عن رجفتها، لتبدأ الأعين في الفحص والتدقيق، لحظات ثقيلة من الحرج والخجل قبل أن تهرول العاريات من جديد للاختفاء خلف الجدران.

وحدَها صُبح لم تشعر بما حدث وهي نائمة تحت شجرة التوت، فقط شعرت في نعاسها بأنها تعدو وتجري حول الساقية، وعمارة يحاول اللحاق بها.

الأحلام الأنثوية المثيرة لشهوتها لم تعد تؤرق منامها، فقط أصبحت ترى عمارة الطيب، وكأنها تتابع مسلسلًا تشاهد منه حلقة جديدة مع كل غفوة.

بيوت البلد لم تتأثر بالزلزال، فقط تأثرت النفوس وفزعت القلوب من ارتجاج الأرض، ليلة عصيبة تلتها عدة ليالٍ من التدبر والخشوع، وهم يتابعون في شاشات التلفزيونات ما حدث وما نتج عن وقوع الزلزال.

حملت ناهد طفلها الصغير فوق كتِفِها، ومشت خلف فيصل زوجها في طابور طويل، وهما ينتظران دورهما في الحصول على خيمة من خيم الإيواء.. منزلهما القديم المتهالك لم يستطع الصمود، وخر كعجوز طاعن بالسن بعد أن فر منه الجميع قبل الكارثة بثوان قليلة، الفقر والقهر ملاصقان لها أينما ذهبت.

تنظر حولها شاردة غير مُصدقة ما حدث لهما، وافقت على الزواج من فيصل، سايس السيارات، بعد أيام وليالٍ من التشرد والتسول في الشوارع.

كانت قاب قوسين أو أدنى من أن تستسلم وتعيش من عرق جسدها، وتسقط في بحر الرذيلة والدعارة، حتى ظهر فيصل الدميم قبيح الملامح والقلب، وعرض عليها الزواج.

متسولٌ على هيئة سايس بفوطة قذرة يطوف ميدان رمسيس، وهي متسولة بملابس متسخة تمشي في الشوارع بلا هدف، وحولها مئاتُ الذئاب يحاولون النيل منها ونهش لحمها.

لم تجد دارًا تقبلها للخدمة، وهم لا يعرفون من تكون ومن أين أتت؟ ووقف حُسنها اللافت ومنحنيات جسدها عائقا من الفولاذ منع السيدات من قبولها بمنازلهن.

تجمع حولها ثلاثة من المساطيل تحت كوبرى الليمون، وقد قرروا أن تكون وجبتهم في جنح الظلام، قاومت وحاولت الفرار وتمزقت ملابسها قبل أن يظهر فيصل، ويُنقذها من بين أيديهم بعد أن أخرج سيفًا طويلًا من تحت سيارة قديمة مغطاة بالأتربة، وأخذها معه لحُجرته الصغيرة.

أنقذها من الذئاب المفترسة، ولم يقبل أن ينهشوا لحمها الطازج في الشارع على قارعة الطريق، والتهمه على مهل في حجرته القذرة، بعد أن جلست واستراحت وتوقفت عن البكاء والنحيب، وتسلل مُخدر الحشيش من سيجارته إلى عقلها، ولم تعد تشعر بشيء.

مجرد هلاوس وخيالات، وجه فيصل القبيح يتضخم ويصغر بلا سبب، وهي تضحك من هيئته، وتتخلل السعادة قلبها وتسكنها الراحة

وهي تشعر بالحرية وملابسها المتسخة تفارق جسدها، وتشعر بالنسيم القادم من النافذة المكسورة يُنسيها بشاعة رائحة فم فيصل.

لو أننا نرى مستقبلنا ولو ليوم واحد فقط للأمام، ما فعلنا خُمس ما نفعل، مجرد سواد الليل انقضى ورحلت العتمة ومعها عذريتها، فعلها فيصل ولم يتركها وجبة مجانية للمتشردين، وقرر التهامها وحدَه.

في الصباح، وبعد أن أدركت ما حدث وهي وحيدة في حجرة فيصل لم تبكِ أو تلطم وجهها، فقط تمكن منها الشرودُ وتجمد بصرها على النافذة المكسورة ترى من بين زجاجها المشروخ الأطفال يتسابقون في السباب القذر، وأغلبهم بنصف ملابسهم، ونساء ذات ملامح ذكورية يتبادلن السباب مع تحية الصباح.

ليتكِ تزوجتِ عفيفي يا تعيسة الحظ والأقدار، هكذا حدثت نفسها وسخرت مما وصلت إليه، ناهد أجمل نساء أبو طيب تجلس بخطيئتها تجفف ما بين فخذيها بقطعة قماش متسخة في حجرة قذرة تفوح منها رائحة نتنة، ولا تعرف اسم صاحب وسالب شرفها.

عندما تتعدد المصائب نرى في بعضها وجاهة وميزات، مصير محتوم لا بد أن تصل إليه، منذ أن ركبت القطار وتوقف بها في محطة رمسيس وشعرت بأنها دجاجة ساقطة من فوق أحد الأسطح، وترى الشارع لأول مرة، وهي تعرف أن ما ينتظرها أسود من طين أرض الساقية.

خرجت من البلد تحمل العار والخطيئة، ولا جديد إن حملتهما أضعافًا في أرض غريبة لا تعرف فيها أحدًا، لا أحد يرى فيها شيئًا غير أنها أنثى، ليست كأي أنثى، فقط كلهم وأولهم محمود، لا يبتغون شيئًا غير التهام أنوثتها، بلا مقابل وبلا ثمن.

عند عَودة فيصل تفحصته لأول مرة، شديد القبح والدمامة، عاد حاملًا معه لفة كباب، وعدة زجاجات من البيرة، وكأن كل ما يحدث عادي ومقبول.

وجدها منتظرة قابعة بخوف فوق فراشه المهترئ، ذئب واحد مستأنس خير من قبيلة ذئاب مفترسة فوضوية، كلاهما ملائم للآخر، فقره ودمامته وأعوامه الخمسون ملائمة تمامًا لفتاة مثلها، ورغم جمالها كانت تفترش أرض الشارع تحوم حولها الكلاب وذئاب الليل.

الحسنة الوحيدة في كل ما حدث أنه تزوجها عند مأذون السبتية، بعد أن صحب معه عدة رجال من أهل الحارة، كان لا بد أن يفعل حتى يأمن ألسنة حيات الحارة دائمة النظر من النوافذ، ومراقبة كل صغيرة وكبيرة حولهن.

الزواج من دميم يكبرها بثلاثين عامًا على الأقل، أفضل من النوم تحت الكبارى ومحاولات الهرب من شهوة المتسولين والمشردين.

لم يجلبا معهما أي شيء من بيتهما المنهار، لم يسعفهما الوقت في حمل أي شيء غير صغيرها قبل فوات الآوان.

الحياة في الخيمة أسوأ عشرات المرات من الحياة في الحجرة القذرة في الحارة الضيقة، تتنهد كل دقيقة وهي تتذكر أبو طيب، لا يوجد مكان أفضل من البلد رغم كل ما رأت فيه من ظلم وقهر.

صوت المنادي يأتي من الخارج معلنًا لسكان الخيام عن وصول القافلة الطبية لتقديم رعاية صحية مجانية للمنكوبين، مشت مع مَن مشوا لتطمئن على صغيرها، وقد شحب وجهه جراء وضعهما الجديد.

لمحت فور دخولها الطبيب قنديل ببذلته الغالية يقف أمام إحدى المذيعات يسجل للتلفزيون لقاءً يشرح فيه حرص الدولة على رعاية المنكوبين، وتوفير كل ما يلزم لهم.

ترددت كثيرًا، لكنها في النهاية ذهبت إليه مخترقة الصفوف، وهي تلهث خائفة من ضياع الفرصة، نظر إليها دون أن يعرفها، منذ أن سكن على النيل لم يعد يحفظ وجوه أهل البلد:

- أنا ناهد، ألا تعرفني يا دكتور؟

تفحصها بشدة، وسحب نفسًا طويلًا من سيجارته، وهو لا يجد لها أي صورة في ذهنه لتستطرد متفهمة:

- أنا من أبو طيب، ابنة زغلول الأعرج.

تذكر اسم الرجل، وقد كان من فقراء البلد المعروفين من كلافي شيخ البلد، أبدى لها ترحيبًا حقيقيًا وصاح على أحد مساعديه، وهو يبالغ في تحيتها، مما طمأنها وقصت عليه كيف وقع منزلها، وتسكن إحدى الخيام من حينها.

تأثر لها بالغ التأثر، ولم يتردد أن يعرض عليها الذهاب معه والعمل بفيلته الفارهة المطلة على نيل المعادي، لم تكن ذكرت له أنها زوجة، وزوجها ينتظر عودتها في خيمته.

الأمل أصبح كقرص الشمس وقت الظهيرة، فائض النور أشعرها بالدفء في برد نوفمبر، فقط ساعة مرت وهي تقاوم الموت من فزعها أن يأتي فيصل بحثًا عنها وتضيع فرصتها الأخيرة للنجاة، حتى استجابت السماء لدعواتها، ووجدت نفسها في سيارة قنديل في طريقها لحياة جديدة على النيل.

الأمل لا ينتهي أو يغيب، والأقدار في أبو طيب تتبدل كما يتبدل ورق الشجر كل ربيع، بعد أن آل مسجد أبو طيب الكبير لوزارة الأوقاف صار المقام مبنى منعزلًا منفصلًا عن المسجد، قَلّ زُوّاره، ولم يعد يزوره ويطلب منه الكرامة والعون غير العجائز والدراويش القدامى.

وبعد العِشاء وغلق المسجد يتخذ بعضهم من جدار المقام متكأ لهم لتدخين الحشيش والبانجو، المراهقون والصبية يتجمعون ويختبئون عن الأعين في رحابة المقام وعزلته، يسهرون في قهوة حجازي مساءً، فبعد أن يغطي براح القهوة بستارة ثقيلة معتمة، يدير لهم الفيديو، ويشاهدون الأفلام الإباحية، ثم يهرعون لجدار المقام يختمون ليلتهم بالسطل.

حجازي رجل ذو عقل راجح، يبيع الحشيش والبانجو لكن لا يسمح لأحد بالسطل داخل القهوة، كثرة عدد الورش والمخازن وفرت سبل عمل متعددة للجميع.

العمل يجلب المال، والمال يجلب البانجو عند أغلبهم، أو يتيح لهم فرصة الذهاب للمركز وزيارة بيت المعلمة سهير راقصة المولد التائبة التي تحايلت على مشقة الحياة بعد اعتزال الرقص وكبر السن وترهل اللحم، وجلعت من بيتها وكرًا للراغبين في المتعة الحرام، خدمة لشباب المركز وكفوره ونجوعه. صاحبة قلب كبير ولا ترد سائلًا ولو قلت نقوده، وتكتفي بهز رأسها بعطف بالغ، وتردد دائمًا جملتها المكررة:

- الناس لبعضها.

قاوم منصور مرات ومرات دعوة أصدقائه لزيارة بيت المعلمة سهير، لكنه في النهاية وبعد أن زار القهوة وجلس خلف الستارة المعتمة ثلاث مرات، قرر الذهاب معهم، ورؤية المعلمة عن قرب.

ولِمَ لا يفعل؟ وقد كفر بأفلاطونية حبه لميرفت ابنة عمته، وفقدها بكل سهولة بعد أن تشجع ذات مرة، وأخبرها بمشاعره لتضحك بشدة وتعتبرها مجرد مزحة، وأنهما أخوان، ولا شيء غير ذلك.

تجارة أبيه بركة الضخمة جعلت جيبه ممتلئًا بالنقود، وضمنت له أن يكون صاحب الاختيار الأول من بين رفقائه، ارتبك بشدة واعتراه الخجل، وجال ببصره حوله يتفحص نساء البيت، واستهوته أصغرهن سنًا وقد كانت أكثرهن رقة وجمالًا.

لم يرغب في الأخريات من أصحاب الأجساد الكبيرة والأثداء الضخمة والأرداف الممتلئة، بداخله لا يرغب في واحدة تشبه أمه نعمات في الهيئة والتفاصيل.

أغلقت رحاب باب الغرفة عليهما ودرفة النافذة المفتوحة، وقادته نحو الفراش، تمدد فوقها مضطربًا مرتبكًا لا يشعر بالإثارة والشهوة، بقدر ما يشعر بالخجل والارتباك، خلعت جلابيتها، وظهرت أمامه بقميص عارٍ يُلهب المشاعر، ويسمح لقدر كبير من لحمها الأبيض في الظهور، تحركت نحوه وهي تتمايع وتتمايل، وتصدر من فمها صوت تأوهات، كأنها قد بدأت خوض معركة الأجساد بالفعل.

أدهشه تصرفها، وقتلت رغبته بداخله، وهو يدرك مدى التصنع والحرفية اللتين تتعامل بهما لتنتهي شهوته وتموت، وهي لم تولد بعد من الأساس.

أفزعها رد فعله، وتجمدت بجوار الفراش قبل أن تعتليه، ونظرات الغضب والضيق من ملامحه ترعبها، حتى تماسكت وحاولت أن تزيد من دلالها، وهي تبتسم له رغمًا عنها، وتحاول فك قميصه قبل أن يُمسك يدها، ويأمرها بالتوقف والهدوء.

ملامحها عن قرب جعلته يرى تلك النظرة المخفية خلف كحل عينيها، وألوان التجميل التي تغلف كامل وجهها، لا تفرق كثيرًا عن زميلاته في الجامعة، الفارق في قميصها العاري وألوان مساحيق التجميل المبالغ فيها، أخرج من جيبه ضعف ما دفعه للمعلمة سهير، وضعه في يدها، وهو يحاول أن يُطمئنها ويخفف عنها توترها.

ظنها ستبكي وتقص عليه قصة ملحمية عن معاناة وفقر وظروف قهرية دفعتها لطريق الحرام، لكنها لم تفعل، فقط صعدت بغتة لتجلس فوق ساقيه وتلتهم فمه بشراهة ورغبة حقيقية غير اصطناعها الأول، وما الرعد والبرق إلا نبأ يسبق سقوط المطر.

دبت به الرغبة، وتمكنت منه الشهوة، وغاب معها في قبلة طويلة تذوق فيها طيب مذاق فمها الوردي، والتحم الجسدان، وعمت الفوضى الفراش، حتى وقعت من فوقه الوسادات تباعًا دون قصد.

عاد قبل الشروق منتشيًا، والصور لا تفارق عقله، والسعادة والنشوة تملآن روحه، أمسك القلم، وجلس يكتب أول سطور روايته الجديدة.. جنة رحاب.. كل محاولاته قبل ذلك كانت بلا تجربة حقيقية، أو رغبة في قول شيء محدد وواضح، رحاب أوحت له بروايته الأولى، وأول فلسفة يدركها عقله عن رائحة الورد وسط القبور.

جنان الأرض غير جنة السماء، بلا قرابين وبلا ثمن، وقد يدخلها العاصي كما يدخلها المؤمن شديد الإحسان.

هكذا كانت جنة ناهد الجديدة، أصبحت تسكن حجرة نظيفة متناسقة بها راديو وتلفزيون ومروحة، ونافذة تطل على حديقة منعشة ولا تجد أطفالًا عرايا أو نساء قبيحات كلما نظرت منها.

استقبلتها ابتسام زوجة قنديل بترحيب ومودة، وقدمت لها قدرًا كبيرًا من ملابسها القديمة، بعد أن سمعت قصتها وتعاطفت معها.. السيدة ابتسام ابنة الذوات وعضوة الاتحادات النسائية جميلة الروح شديدة السخاء، وكل وقتها للعمل المجتمعي ونشاطات الأندية والاتحادات.

تعاملت- وكذلك أبناؤها- مع ناهد بأدب شديد وأعجبوا بخفة دم صغيرها بشكل كبير، ولم يكن عندهم أطفال في مثل عمره منذ وقت بعيد.

الملابس النظيفة ذات الرائحة الزكية أعادت لناهد جَمالها الذي توارى وذبل واختفى خلف بشاعة الفقر والاحتياج، بعد عدة أسابيع عادت لها نضرتها، وبدأ جمالها يظهر بوضوح مثل شروق الشمس بعد الظلام.

المطلوب منها يسير ولا يُذكر، الطباخ يطهو الطعام للأسرة، والدادة ثريا تقوم بأعمال النظافة، وما شابه، ولا يتبقى لها من عمل غير الهين البسيط، مثل صُنع القهوة للدكتور قنديل، أو الينسون بالنعناع الأخضر لسيدة البيت.

جنة ناهد في قلبها أوسع من أرض المولد في أبو طيب، تخلصت من فقرها ومن قبح فيصل، وأصبحت تنام على فراش نظيف، وتتقلب عليه دون خوف من أن يخونها ضيق المساحة وتسقط من فوقه.

فقط أصابها الانزعاج، عندما سمعت أن الدكتور قنديل سيزور البلد في نهاية الأسبوع، وكأنها قد نسيت ما كان وحدث، انتابها الخوف أن يتحدث الدكتور عنها هناك، ويخبروه بقصتها القديمة، وتطلب منه أمه طردها، أو يعرف أخوها بندق مكانها، ويأتي للنيل منها.

أُسقط في يدِها، ولم يكن هناك مفر من إخبار الدكتور بكل شيء، وقفت أمامه تقص عليه قصتها كلها بلا كذب، وببكاء وقهر، حتى إنها أخبرته عن فيصل، وكيف تركته وحدَه يحيا حياة الخيام؟

سيجارته لا تنطفئ في يده، ويستمع إليها متأثرًا وهو يدقق في ملامحها، ويراها حق الرؤية لأول مرة، ترتدي أحد فساتين زوجته القديمة، الملابس النظيفة وهندامها جعلاه يتفحصها تفحص رجل خبير، ويقارن بين صورتها أمامه وبين صورة زوجته بالفستان نفسه.

كأنه أعمى لم يبصر أبدًا من قبل، أدرك حُسنها البالغ وأنوثتها الملهبة للقلوب، لم يكن يرى لخصر زوجته أي انحناءات وهي ترتدي الفستان نفسه، أما مع ناهد فقد تموج القماش وتحرر وتلوى مثل الثعبان بين منخفض وبارز ولين ومستقيم.

لم يقاطعها حتى انتهت وطمأنها، ووعدها أن لا يعرف أحد من البلد عنها شيئًا، وأوصاها أن تختفي إذا صادف وأتى من البلد أي زُوار.. أعادَ لها الأمل، وفتح باب سعادتها من جديد، وأكد بطيب ردِّه استمرار بقائها في جنتها بعد أن شعرت بخطر الطرد منها، وفقدانها والعودة لحياة الفقر والقذارة.

***

قدم منصور روايته بعد أن انتهى منها لرئيس قسم الأدب والنقد في الكلية، وبعد مدة ليست بالقصيرة جلس معه، وهو يعبر له عن سعادته، وانبهاره بحُسن أسلوبه ونضارة أفكاره.

سانده وساعده حتى ضمن له النشر في كبرى الدور وعُقدت الندوات وكتبت الأقلام عن بزوغ نجم روائي جديد له مستقبل باهر، إن استمر على المنوال نفسه.

كفر أبو طيب لا تتوقف عن العطاء، ولا ينقطع نجاح أبنائها، بعد قنديل وحاتم أصبح اسم منصور علمًا معروفًا، وتحولت روايته لفيلم سينمائي، حقق النجاح وعظيم الإيرادات.

قنديل أصبح ينتظر عَودته كل مساء بفارغ الصبر ليحتسي فنجان قهوة من يدي ناهد، وينعم بتلك الراحة والبهجة اللتين يشعر بهما فور رؤيتها، لكنّ شيئًا ما يُؤرقه ويفسد عليه راحة نفسه، حتى فعلها وطلب من محاميه الخاص أن يبحث عن فيصل، ويأتي بورقة طلاق ناهد بأي ثمن.

وقد كان، ووافق الرجل بكل هدوء بعد أن أخذ ما يريد وأكثر، ولم يُفكر حتى في السؤال عن ابنه، قنديل طبيب القلوب قدم ورقة الطلاق لناهد، وهو يشعر بالفخر لما حقق من إنجاز، وشاهد فرحتها، وأشاح بيده بعنف وخجل مانعًا إياها أن تقبله.

مُطبب القلوب يعرف ويعي أن القلب إذا أحب واشتهى لا يتوقف عن محاولات الوصول، الرجل واسع الشهرة والثراء، ولا ينقطع عمله، ولم يتذوق للراحة طعمًا منذ سنوات.

آن له أن ينعم بما حصد ويتذوق من تفاح الجنة ما يشبعه ويُرضي فؤاده، زوجته حققت له كل ما أراد منها، لكن ناهد تقدم له ما لا تحظى به ابتسام ولا ألف مثلها، لا يمكن المساواة بين رائحة الشواء ورائحة الخبز.

الوقت مناسب والتفاحة شديدة الحُمرة، ونفسه تضور من الجوع وتشتاق للالتهام بشراهة دون أي حسابات، عندما يفتح السعد بابه لا يُغلقه غير المجنون فاقد العقل، السعد قد يأتي من السماء، وقد يأتي من تحت الأرض.

جلس سمير مع صهره سعد، ابن المرحوم حسن، يهمسُ له بحذر، ويخبره بأمر وجود آثار تحت بيت زغلول الأعرج، الذي لا يعيش فيه غير ابنه بندق فقط، المعلومة مؤكدة جاءت بعد أن تم الحفر ببيت سمير لأمتار، ولم يصل ومَن معه لشيء غير سرداب طويل يصل لبيت بندق.

بيت زغلول الأعرج في المنتصف بين بيت سعد وجدته صُبح وبيت المعلم صفتي، حاول سمير وشقيقه شراء البيت من بندق، لكنه رغم

شدة فقره رفض بشدة، وأخبرهما بأن البيت بيت أبيه زغلول، ومِلكه هو وإخوته، ولا يمكنه بيعه على أي حال، وأغلبهم غير موجود.

خبير التنقيب أخبرهما بعد حسابات دقيقة واستنباط الأرض وعمق السرداب أن المقبرة في الجانب الشرقي لبيت بندق بجوار بيت صُبح، ومن جهتهما لا مناص من إخبار سعد بالأمر، وجعله شريكًا فيما سيحصدون من خير وكنوز بعد الوصول للمقبرة.

الحديث عن الملايين ثمن بيع الآثار أسال لعاب سعد، ووافق على شراكتهما الطريق لكنز الأجداد، ومَن ذا الذي يغلق باب السعد وإن كان تحت الأرض؟، العقبة الوحيدة تكمن في جدته التي تعيش في الطابق الأرضي، ولن يستطيعوا فعل شيء في ظل وجودها.

أيام طوال وتفكيرهم لا يتوقف يبحثون عن حل وطريقة للتخلص من الجدة، حتى جاءهم الحل من السماء ذات ليلة وسعد يجلس مع جدته يفكر في أي طريقة تقربه من كنزه وقطعت تفكيره وهي تسأله إن كان يذهب لبيت عمته نسيم ويطمئن عليها أم لا؟.

لمعت الفكرة برأسه، واقترح عليها أن تذهب بنفسها ومعها نجاة زوجته وأولاده وتجلس في البيت حتى يستطيع إعادة تعلية أرض البيت وقد أصبحت عتبتهم أقل من مستوى الشارع.

الجدة أشفقت عليه من التكاليف، لكنه لم يتوقف عن الإلحاح والتعبير الكاذب عن رغبته في أن يجدد البيت ويُعلي أرضه كما فعل أغلب الجيران، نجحت خطته وذهبت الجدة الطيبة للعيش ببيت ابنتها وبدأ الشركاءُ بجدية ونشاط في حفر الأرض والبحث عن طريقهم نحو المقبرة.

أهل البلد لم يعودوا فقراء كما قبل، أصحاب الياقات البيضاء والقمصان والبدل أصبحوا أكثر من أهل الجلاليب وحاملي الفئوس، البيوت تعددت طوابقها حتى إن عزمي شقيق العمدة بنى بناية كبيرة من ستة طوابق، إذا وقفت فوق سطحها تستطيع رؤية مئذنة الجامع الكبير في المركز، ورؤية أضوائه في عتمة الليل.. البيوت أصبحت مفروشة متلاصقة على شط الترعة الكبيرة، لم يعد يخشى أحد ظهور الجنية، عرفوا من التلفزيون والمسلسلات أن الترعة خاوية من الجنيات، وأن تلك الأسطورة لم تعد موجودة بالمرة.

المدرسة الإعدادية أصبحت مدرستين لاستيعاب العدد الكبير للطلاب، وأصبحت بالبلد مدرسة ثانوي، وأصبحت دكاكين البقالة كالذباب، كلما تلفت في أي اتجاه رأيتها أمامك.. باعة الخضراوات والفاكهة الأغراب يأتون البلد كل صباح، يفترشون السوق، ويبيعون للأهالي، قطع الأهالي النخل من أجل تشييد تلك البيوت الواسعة التي لا تخلو طوابقها الأرضية من الدكاكين.

جدار المقام أصبح وسيلة عرض للأواني والمفارش والملابس بالنهار، ومرتعًا لمدخني البانجو والحشيش ليلًا، الدولة لا تملك حيازة أو أرض ملك لها في البلد، وكلما رغبت في بناء أو توفير خدمة جديدة تطلب الأمر تبرعًا من أحد الأثرياء بالأرض، أو أن تشتري منه أرضه لتقيم عليها ما تريد.. حدث ذلك عند بناء الوحدة الصحية ومكتب البريد، حتى دوار العمدة، لم يعد محور البلد كما كان بعد أن أصبحت بالبلد نقطة شرطة بها ضابط وعساكر ومكتب لتقديم البلاغات.

لم يبق شيء مما تعرفه صُبح غير شجرة التوت العجوزة بجوار حطام الساقية المردومة التي ضاعت ملامحها ومعالمها، سرعة الأحداث وكأن الكل في سباق حياة أو موت، لم يترك فرصة لأي قديم أن يبقى كما كان، أو أن يهتم أحد بأمر شيء مر عليه الزمن، وأصبح من الذكريات.

لم تهتم كثيرًا السيدة ابتسام بخبر رحيل ناهد عن الفيلا، واكتفت أن تمنت لها التوفيق في حياتها بعد أن أخبرتها بأنها ستتزوج وترحل لبيت زوجها، وضعت بيدها سلسلة ذهبية هدية الزواج، ولا تعرف أن الزوج الجديد هو زوجها الدكتور قنديل.

طبيبُ القلوب هو أكثر الأشخاص معرفة بحاجة القلوب لما يُسعدها، ويدخل البهجة إليها ويفتح لها أبواب السعد، في الشقة الجديدة بالبناية نفسِها التي توجد بها عيادته الخاصة.

صنعت ناهد جنتها الجديدة، الثمرة الطازجة والتفاحة شديدة الحلاوة، كان من العبث أن يأكلها فقط شخص مثل فيصل القبيح، أي عقل يقبل أن تكون أجمل ثمرة وأشهى تفاحة من نصيب متسول دميم؟، وقد هفت لها قلوب الوجهاء وتمناها الجميع.

الشقة فارهة لا يخلو سنتيمتر فيها من تحفة من الأثاث أو حلية باهظة الثمن، ملابس جديدة من أغلى الماركات، وحلي ذهبية وعقود من الألماس، هذا ما كانت تستحقه ناهد من البداية، لكنّ حدوثَ الشيء متأخرًا خيرٌ من ألا يحدث، الحالة الوحيدة التي جعلت سيجارة قنديل تفارق فمه، وكيف يفعلها وهو لا يتوقف عن تقبيل ناهد طوال الوقت.

الفارق كبير بين الخبز البلدي والعيش الفينو، لناهد طعمٌ ومذاقٌ لم يعرفه مع ابتسام طوال حياته، كأنه عاش كل ما فات على أكل المستشفيات الصحي، وأخيرًا سمح له الأطباء بتناول الطعام الدسم واللحوم والمشويات.

لم يَجُل بخاطره قبل زواجه منها أن يجلس مبتهجًا، وزوجته ترقص أمامه على نغمات الأغاني الشعبية، التخلي عن الوقار والجدية وخلع النظارة الطبية أمر لم يعرفه من قبل، لكنه الآن نادم كل الندم أنه تأخر في معرفته.

الأقدار في أبو طيب مُعقدة لا يتوقعها أحد، مَن كان يتوقع أن قنديل سيتزوج ابنة أفقر رجل فيها، ومن طردوها لسوء سمعتها، ومَن كان يتوقع أن أحد أبنائها يتزوج من الممثلة الشابة التي تحظى أغلفة المجلات والصحف بصورها، وتزور البلد وتجلس مع صُبح تحت شجرة التوت بعد أن أصبحت زوجة حفيدها؟؟.

لو أنه استمر في حب ابنة عمته، أو أنه لم يُلق بنفسه وطموحاته في بحر المدينة، ما وصل لِما وصل إليه رغم أنها الأقدار، بعضهم يسعى سنوات وسنوات بلا فائدة، وبعضهم يلقى سعده مع الخطوة الأولى دون مجهود أو نقطة عرق واحدة، أقدار سعيدة وأقدار تعيسة، ولا أحد يتوقف عن السير نحو قدره.

زيدان بعد أن ترك البلد، وعاش أغلب الوقت مع زوجته أحلام في رعاية ابنهما المطرب الناجح المشهور- أصابه التعب، وانتفخ بطنه وابتسم رغم ألمه وهو يتذوق ما تذوقته بدر من قبل عندما فسد كبدها وقضى عليها.. استقبل قدره بنفس راضية، وأصبح يرى وجه بدر أمامه طوال الوقت، رغم أن صوت أحلام لا يفارق سمعه وعقله، لكنها الأقدار وأفعالها ولا أحد يستطيع منعها حتى صاحب المقام.

10

المقبرة

كم من راحل غادر وترك البلدة على قدميه، وعاد لها في النهاية محمولًا على الأكتاف داخل نعشه، يُبكيه ابنه حاتم كما الحال مع أبناء بدر، ولوعتهم على فراقه صادقة كل الصدق، موت زيدان أحزن الجميع، قليلًا ما يجتمع أهل البلد على حزن أو فرح واحد، تعددت الأمزجة، وتضادت القلوب، وتباين الاختلاف بين النفوس.

المصالح أفسدت الكثير من المودة، واختفت الأصول، وأصبحت نقطة الشرطة ذات عمل مكدس من تعدد البلاغات وكثرة النزاع، الطريق العمومية ومدخل البلد أصبحا أضيق من اتساع كم السيارات الكثيرة، والدراجات البخارية، وعربات نقل البضائع.

المشاجرات تحدث كل يوم، ومحمود ابن صادق بعد أن أصبح نائبًا في مجلس الشعب خلفًا لعمه عبد الحكيم، قدم طلبًا لوزير النقل لتوسعة الطريق وسفلتته، أسوة بعدة قرى أخرى، وأسوة بالمركز، ووعده الوزير بسرعة الحل.

الكل يعدو بشراسة وشراهة خلف مصلحته، ولا حديث غير قصة حجازي، وكيف دفع لمحام من القاهرة مبلغ مليون جنيه مقابل أتعابه، ليخرجه من قضية المخدرات كما تخرج الشعرة من العجين.. وما قيمة المليون جنيه وهم ينتظرون ثروة طائلة بالملايين بعد الوصول لكنز المقبرة؟

الحفر أوصلهم لسرداب أقصر وأعمق من نظيره أسفل دار سمير، خبير التنقيب شاهد وفحص وأخبرهم بأنهم يقتربون من الوصول لباب المقبرة، سعد يبذل قصارى جهده ليمنع جدته من زيارة الدار، مُدعيًا خوفه عليها من الغبار وتراب الردم، فقط نعمات زوجة عمه كثيرًا ما تمر عليهم، وقد أثار التراب والفوضى فضولها لتعرف ماذا يحدث.

عقلها يُخبرها بأن هناك أمرًا ما يحدث، كلما مرت بالدار وقف سعد أمامها كأنه يحاول منعها من الدخول والرؤية، فضولها وبحثها في ما لا يعنيها جزء أصيل من سلوكها وحياتها.

تفعلُ ذلك بدوار العمدة بحُجة زيارة بناتها، وتتدخل في كل شيء، حتى حياة ابنها وزواجه من الممثلة المشهورة كان كنزًا سقط عليها من السماء، وجعلها لا تكف أو تتوقف عن الثرثرة، وتنسج قصصًا وأحداثا من خيالها كلما تجمعت حولها النساءُ، وسألنها عن أي اسم من أسماء الممثلين.

ومَن مثلها في أبو طيب تزوج ابنها المؤلف المشهور من ممثلة مشهورة؟ صورها في كل مكان؟.. فقط شكُّها فيما يحدث في دار صُبح هو ما يشغلها وترغب في كشفِه.

شُركاء الطريق نحو المقبرة يزيد عددهم عند الحاجة، بعد حجازي وأخيه سمير، وصهرهما سعد وعماد جالب خبير التنقيب، وعطا وشرقاوي حاملي فئوس الحفر، وممدوح صديقهم- اضطروا للاستعانة بعلي السبّاك بعد تسرب الماء داخل نفق الحفر، وكسرهم الماسورة العمومية للصرف.

غرسَ الألواح والأعمدة الخشبية بجدران النفق كي لا يتهدم عليهم، ويسقط بسبب ماء الصرف، العمل لا يتوقف طوال الليل، بعد أن تهدأ الحركة وتخفت حول الدار.

وما إن تبلغ أبعد نقطة نحو اليأس، تسمع صوت مُنادٍ قادم من طريق الأمل، ارتطم فأس شرقاوي بحائط صلب، واتجهت الكفوف تمسحُ التراب والطين، ويظهر باب فرعوني مهيب أمام بصرهم.

الفرحة كادت تُنسيهم أنفسهم، وتجعلهم يصيحونَ من الفرحة، نعمات توسوس لزوجها بركة أن ينظر في أمر سعد ابن أخيه، وما يفعله بالدار، فلهما فيها ميراث وحق، حتى وإن كانا من أغنى أغنياء البلد.

اكتفى بوعدها أن يفعل، لكنه لم يتحرك نحو الدار قيد أنملة، أعباء التجارة وكثرة المال لا تعطيه فرصة لأي شيء.

حضر الخبير بصحبة عماد، وجلس مقرفصًا أمام الباب عدة دقائق، قبل

أن يُعبر عن اضطرابه وخوفه على حد معرفته من فتح الباب وحدهم دون شيخ عنتيل من شيوخ فك التعاويذ، وفتح المغلق المصون.
الشيخ يأخذ مئة ألف جنيه قبل حضوره، وبالطبع دفعها حجازي على أن يتم الحساب فيما بينهم بعد الوصول للكنز، وحصد الملايين.
أشعل الشيخُ البخورَ ذات الرائحة النفاذة، وظل ساعة أو أكثر يتحسس الباب بيديه، ويُتمتم بعبارات سريعة غير مفهومة، حتى ابتل جلبابه من شدة عرقه، بسبب ضيق النفق، وارتفاع الرطوبة بشكل بالغ غير محتمل.
انتهى وجلس خارج النفق يُجفف ملابسه، كأنه خارج الآنَ من البحر، ونظر في وجوههم، ثم تحدث بجدية مخيفة أن الباب موصد بلعنة مُركبة، ولا بد من تقديم قرابين لفك الغلق وفتح باب الكنز.
لا بد من فعلة نجاسة فوق فوهة النفق وفوق التراب، ليختلط ماء الخطيئة وعرقها بأرض حارس المقبرة، ولا بد من إراقة دم بريء بعدها يهدأ الحارس، ويرفع يده عن باب المقبرة.
السبعة المستمعون تبادلوا النظرات، وكان أشدهم جرأة وحماسًا هو حجازي، ولم يشعر بفزع من طلبات الشيخ مثلهم، ضحك بوقاحة وتفاخر، وهو يلامس عورته أمامهم ويهتف:
-اتركوا أمر النجاسة لي.
لم يضحك أيٌّ منهم على دعابته الفجة غير الملائمة لما يحدث، وتحدث سعد بفزع واضح متسائلًا:

-قتل؟!.. وهل تقتلونَ هنا في داري؟

وضع سمير يده فوق كتفه مطمئنًا إياه، وهو يحاول تهدئته:

-لا توجد حلاوة دون نار، يا ابن عمي حسن.

هَمّ سعد أن يعترض وينفجر فيهم قبل أن يجذبه ممدوح من ذراعه، ويخرج به خارج الحجرة، ويهمس له خوفًا من أن يسمعهم أحدٌ من الداخل:

-لا تتصرف مثل الأطفال، هل تظن مجرمًا مثل حجازي يمكن أن يتراجع عن الوصول للمقبرة إذا رفضتَ طاعة أوامر الشيخ، حتى وإن كنت صهره؟

تلفت خلفه للتأكد من الأمان، ثم استطرد بهمس أكبر:

-لا أستبعد أن تكون أنتَ صاحب دم البريء، إذا رفضت أن يتم ذلك، أو حاولت الاعتراض ومنعهم.

تمكن الغم من سعد، وقرر سماع كلام ممدوح، وعدم الاعتراض، ويكفيه ألا يشترك ويلوث يديه بقتل بريء.

رحل الشيخ وخبير التنقيب، وجلس السبعة يتبادلون الحديث بين جذب وشد وحماس وارتخاء فيما بينهم، حتى حَل الصباح ولم يشعروا بالوقت، وجاءهم صوت الست نعمات من الخارج تنادي على سعد.

فور سماع صوتها، لمعت عينا حجازي، ووقف متحفزًا وهو يهتف مع إشارة من يده:

-جاءت لقضائها.

فهم الجميع مقصده، وهبّ سعد مرتعبًا يكاد وجهه ينفجر منه الدم من شدة الخوف والغضب، ويضع يده أمام صدره لإيقافه:

-قال الشيخ النجاسة قبل القتل.

دفع حجازى يده بعنف وقسوة، ثم جذبه من ملابسه، وهو ينظر إليه بعينين جاحظتين متوعدتين:

-ومن قال لك إني سأقتلها قبل أن أفعل معها النجاسة؟.

ثم ضحك بخبث وشر مُعلن. وقفز من نافذة الحجرة، ولف حول الدار، ودخل وجاء من خلف نعمات، وضربها بقبضة على رأسها من الخلف، ضربة أسقطتها فاقدة للوعي، وصاح على الجالسين بالداخل، وساعده عطا وشرقاوي في جذب جسدها لداخل الحجرة.

التصق سعد بالحائط خلفه، وهو يرى حجازى يغمز لهم بوقاحة، ويطلب منهم تركه مع نعمات حتى ينتهي من هدفه.

لم يفكر أي شخص في عواقب أفعالهم وسرعة حدوث الأمر، لم يغادر الشيخ المكان إلا من ساعات قليلة، وها هم ينفذون أوامره بسرعة فائقة، كأن عقولهم أصابها الجنون وتوقفت عن الحرص والتفكير.

لم يتحمل سعد المشاركة، ورؤية ما ينتوون فعله، فهرول للطابق الثاني وجلس بجوار حائط السلم دافنًا وجهه بين ركبتيه، يود أن تنشق الأرض وتبتلعه، ندمًا على ما وصل إليه.

قبل أن يفعل حجازي نجاسته خلع عنها ذهبها، وهو يقول بصوت مرتفع:

-الست كتر خيرها تدفع أجرة مولانا الشيخ.

قطع ملابسها، وكشف عورتها، وقبل أن يلتحم جسده بجسدها فاقت لترى وجهه وهمت بالصراخ من فزعها، لولا أن وضع يده بفمها بقسوة وعنف وصاح على سمير وعطا، وطلب منهما إحكام قبضتهما عليها، وشل حركتها حتى يتم فعله، وينتهي من أمر النجاسة.

الموقف عصيبٌ، تغيب معه الشهوة والرغبة، وعانى حجازي حتى وجد بجسده شبح ذكورة مكنته من العبور لفعل نجاسته، ونعمات ترفس وتحاول المقاومة قدر استطاعتها، والأيادي فوق جسدها عديدة تحاول شل حركتها، حتى تمكنت من عض يد حجازي فور شعورها بمروره داخلها، ليصرخ متألمًا ويهوي على قبضتها بضربة قوية ويقوم بخنقها بيديه، وهو يستميت للإبقاء على شبح ذكورته قادرًا على إنجاحه في إتمام فعلته.

شعر سمير وعطا بتراخي جسد نعمات، ونظرا لبعضهما بعضًا، وقد أدركا أنها فارقت الحياة، ومازال حجازي يتراقص بخصره فوقها، محاولًا الوصول لماء النجاسة، ولم يشعر بهما، وهما يتركان جسدها، ويبتعدان للخلف، حتى انتهى، وقام عنها، ليرى نظرات الفزع في وجهيهما، ويتحدث عطا بخوف ووجل:

-الست ماتت من بدري.

جزع حجازي وتقيأ، بعد أن أدرك عظيم فعلته، لقد جامع سيدة مقتولة، ولم ينتبه أنها بلا روح، صاح ممدوح فيهم، وقد كان أكثرهم عقلًا وتيقظًا، وطالبهم بسرعة إخفاء جثتها قبل أن يأتي شرقاوي من خلفه، ويهوي بفأسه فوق رأس نعمات وهو يصيح كخبير في جرائم القتل:

-قال الشيخ دم بريء، لا بد من الدم.

انشق رأس نعمات نصفين، وسال دمها على أرض وطين النفق بالقرب من مكان ماء نجاسة حجازي، المشهد مفزع لا يتحمله حتى المجرمون، قام سمير بتغطية وجه نعمات بملابسها، واشتركوا جميعًا في دفع جسدها داخل النفق.

المكان الواسع بالأسفل بجوار الباب هو أنسبُ مكان لدفن وإخفاء جثتها، جسدها ثقيلٌ وعريضٌ، كلما دفعوه ارتطم بألواح علي الخشبية، وهو يحاول ضبطها وإصلاحها خلفهم وصولًا لقاع النفق أمام الباب الفرعوني، ليشعروا برجرجة، ويسمعوا صوت طقطقة، وقبل أن يستوعبوا شيئًا، حدث دويٌّ مرتفع أفزع سعد وانتشله من ذهوله، ليعود للأسفل ويتفاجأ بانهيار النفق.

انهار النفق، ودُفن الباحثون عن الكنز أحياءً بجوار جسد نعمات التي انشق رأسها كما انشق رأس منصور.

يا لعجب الأقدار في أبو طيب، ظلت طوال السنوات الماضية تظن أن

أحلام الرءوس المشقوقة بسبب ما فعلته بمنصور، ولم تكن تعلم أنها نبوءة شر لما سيحدثُ لها.

تشنج سعد، وصار يقفز كالمجنون لا يعرف ماذا يفعل، حتى هدأ واستكانَ وأمسكَ بفأس شرقاوي الملطخة بدماء نعمات، وصار يساوي الأرض، ويخفي كل أثر لما حدث.

ابتلع النفقُ المنهارُ شُركاءه الباحثين عن ذهب الأجداد، ومعهم المرأة التي قادها فضولها ورغبتها في معرفة أسرار الناس لحتفها ونهايتها.

اختفاء نعمات والرجال الستة صار حديثَ البلد أيامًا وأسابيع، ووصل الأمرُ للصحافة، فهي أُم شخصية معروفة، وصبّ ذلك- ولا غرابة- في مصلحته، هو وزوجته الممثلة، وكيف لا يحدث؟ وكلما زادت القصص والأحداث والشائعات زادت الشهرة وكثرت العروض.

لم تتوقف البلدة عن الأسئلة، ومحاولات فك اللغز، حتى ظهرت التريلات وحضرت البلدوزرات الثقيلة بأمر من سيادة الوزير لتوسعة الطريق العمومي.

شجرة التوت تعوق خطة التوسعة، لا بد من قطعها، كل محاولات صُبح العجوز وصراخها لم تنجح في إيقاف شيء، لا أحد يستطيع الوقوف بوجه القدر، وما أعظم الأقدار غير الموت.!

تُقطع شجرة التوت، وتموت معها الذكريات، ويموت ويختفي ظلها للأبد، الذكرى الوحيدة الباقية من زمن عمارة الطيب تقرر لها الرحيلُ

وكتابة سطر النهاية.

الأسفلت الأسود أخذ مكانه في أرض الساقية القديمة المحطمة، وتم عمل طريق كبير عصري يناسب أهل البلد، ويخفف العبء عن أصحاب السيارات، وناقلي البضائع.

لم تتحمل صُبح الحياة بعد موت شجرة التوت وتموت ذكرياتها معها، أصابها المرض ولم يشفع لها أنها أم قنديل الطبيب الفذ، وأغمضت عينيها، وذهبت لعمارة بعد طول بُعد واشتياق.

أرض الساقية أصبحت مطمعًا للجميع، الأرض تطلُّ على الطريق العمومي، لكنها أرض مشاع، أغلب أهل أبو طيب لهم أسهمٌ وحصصٌ فيها.

تفاقم النزاع، والكل يرغبُ في الاستحواذ والفوز بقطعة الأرض المميزة، لم ينتهِ النزاع إلا بعد أن اقترح أحد أصحاب العقول الخبيثة أن يتم بناء مسجد كبير، يكون بشرة خير في مدخل البلد، ولكي لا يتنازع أحد، ويفوز مَن يفوز ويخسر مَن يخسر.

لا أحد يتذكر بناء المساجد، إلا عند محاولته الهرب من جُرم أو شر، وافق الجميع، وتجمعت التبرعات، ووقف سعد بعد أن أطلق لحيته، وعزف عن الدنيا، وزهد فيها، يفترش الأرض أمام مواد البناء، وهو يهتف بحماس وخشوع:

- تبرع أخي المسلم.. تبرع لبناء مسجد الساقية.